

جرائم ومرافعات

يوسف حلمي

جرائم ومرافعات

تأليف

يوسف حلمي

تقديم

د. سعيد عبد العزيز

الكتاب: جرائم ومرافعات

الكاتب: يوسف حلمي

تقديم : د. سعيد عبد العزيز

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

E-mail: r



حلمي ، يوسف

جرائم ومرافعات / تأليف: يوسف حلمي ، تقديم : يوسف حلمي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٨٠٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٨٣١ / ٢٠١٨

جرائم ومرافعات



مقدمة

الحقوق محفوظة ومصانة، والواجبات معروفة ومطلوبة، ومن شأنها أن تشد الروابط بين الناس وتزيد الألفة فيما بينهم في مشارق الأرض ومغاربها، وتحفظ وحدتهم وتصون كرامتهم، ولقد أدى الاهتمام بالجوانب النفسية للمجرمين إلى نشأة علم النفس الجنائي، وكذلك عجزت المؤسسات الاجتماعية عن إيجاد الحلول المناسبة للحد من سلوك المجرم وإثنائه عما أراد، وكذلك شكوى المجتمعات من تكاثر وتطور الجريمة في المجتمع الصغير والكبير، وفشل مؤسسات التربية والتعليم صغيرها وكبيرها في بعض الدول عن احتواء المراهقين وتعديل سلوكهم، ورؤية بعض علماء النفس والتربويين البحث والتقصي في مثل هذه القضايا التي أرهقت كاهل الشعوب والأمن في كثير من دول العالم..

ونجد أن علم النفس الجنائي تطور ومر بمراحل كثيرة من خلال تحدث فلاسفة الإغريق القدامى مثل أبوقراط وسقراط وأفلاطون وأرسطو عن المجرمين بوصفهم ذوي نفوس فاسدة أساسها عيوب خلقية وجسمية. وفي القرون الوسطي ظهر اتجاه فلسفي آخر يرمي إلى استيضاح طبيعة النفوس من خلال الشواهد الجسدية، وفي مرحلة تالية سادت نظرية خرافية تربط بين تكوين النفس ذات الميول الإجرامية وبين الكواكب.

ومنذ بداية النصف الأخير للقرن السادس عشر وجد الفلاسفة الطبيعيون النظرية الجزائية، وعلى رأسهم (ديلابورتا) و(دولاشمبر) و(داروين) مُنتجين المنظور الفكري والمادي الذي يبحث في الاستدلال على طبيعة النفس ونوازعها من خلال العيوب الخلقية الظاهرة.

يُعرّف علم النفس الجنائي بمفهومه الدقيق الخاص بالجنايات على أنه العلم الذي يهتم بدراسة وفهم الأنماط السلوكية الإجرامية، وآلية حدوثها، وتحديد دوافعها المُختلفة، وطرق تصنيف هذه السلوكيات من خلال المنظورات والاتجاهات المختلفة، كالتطور القانوني والإدانة الجنائية، كما يهتم بدراسة المنظور الإحصائي لبعض الظواهر السلوكية الإجرامية والشاذة لمعرفة مدى انتشار السلوك وشيوعه، أما ما يتعلق بالمنظور الوظيفي فإنه يدرس أنواع الخلل الاجتماعي والنفسي والذي يُؤدي بدوره إلى حدوث السلوك الإجرامي، كما نظر علم النفس الجنائي للجريمة على أنها تنتج عن الدوافع النفسية غير السوية، وأثبت علم النفس الجنائي أن الجريمة ليست قضية تخص القضاء والقانون فقط بل إنها ظاهرة ومشكلة نفسية، ويظهر بذلك أن العلوم القضائية والقانونية تُعنى بحماية المجتمعات والحفاظ على أعلى مستوى من الأمان والاستقرار فيها، أما علم النفس فهو يُعنى بالاهتمام بجميع الحالات النفسية التي يمر بها الفرد أثناء تعرضه للظروف المختلفة.

في عام ١٩٠٩م قام أحد علماء النفس الأمريكيين وهو (فرنالد) وذلك بالتعاون مع أحد الأطباء النفسيين في أمريكا هو (هيلي) بتأسيس

أول عيادة نفسية متخصصة في علاج الأحداث وتوالت بعد ذلك فتح عيادات أخرى في ولايات مُختلفة.

ثم دخل علم النفس الجنائي مرحلة جديدة عندما أفسحت بعض كليات القانون المجال لدراسته، ويُسجل لعلماء النفس الإيطاليين إرساء المفهوم المعاصر لعلم النفس الجنائي حول أساس جنوح البشر إلى الجريمة بمنزلة أن الإجرام هو وليد الكيان الخسيس للنفس البشرية حينما يطغى على الكيان السامي فيها.

وفي عام ١٩٤٥م وضع دي توليدو نظرية هي أساس الدراسات النفسية الجنائية وهي نظرية التكوين الإجرامي أو الاستعداد السابق في النفس البشرية والتي انتهى فيها إلى وجود تفاعل نفسي داخلي لدى الإنسان، وهذا التفاعل يُفسر النزعة الإجرامية لدى بني البشر، وأن الجريمة هي وليدة شذوذ غريزي. وفي الستينات استوى علم النفس الجنائي على سوقه كأحد الفروع الرئيسية في علم النفس، وصدر أول كتاب بعنوان (علم النفس الجنائي والقانوني) لـ توش toch

وفي عام ١٩٦٤م قدم إيزنك كتابه الشهير (الجريمة والشخصية) ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن والمؤلفات تتوالى في موضوع علم النفس الجنائي.. ومن الكتب المهمة والتي يُشار إليها في هذا المجال كتاب "جرائم ومرافعات" الذي بين يديك والذي يحتوي علي عدد كبير من القصص الإجرامية الغريبة والعبقرية التي قام بها مُجرمون عتاة وقساة القلوب؛ كما ستجد في هذا الكتاب كيف تناول القضاة طريقة تحليل كل

دليل.. كما ستجد طريقة نقض كل هذه الأدلة من قبل المُحامين العباقرة الذين استطاعوا توجيه أعين القضاة بعيداً عن المتهم الأساسي الذي وكلوا عنه.

وهكذا ستجد أنك عندما تقرأ القصص وتستوعبها كأنك في مباراة كُرة قدم بين الأخذ والعطاء، وبين المبارزة والمراوغة وصد الضربات القوية، وفي النهاية ستحصل علي الهدف الذي نسعى وراءه جميعاً، ألا وهو ظهور الحقيقة التي يبحث عنها الجميع.

د. سعيد عبد العزيز

قضية بلتزار

تعتبر هذه القضية – في القضاء الجنائي – أهم قضية بعد قضية "دريفوس" المشهورة؛ فقد أثارت اهتمام العالم كله، وأوفدت الصحف من جميع الدول مندوبين عنها في جلسات المحاكمة التي تتابعت شهراً كاملاً، وترافع فيها أشهر وزراء بلجيكا وأفقه رجال القانون فيها، وكان الناس يتزاحمون منذ الفجر لاحتلال المقاعد الأمامية، ومع كل منهم زاد اليوم كله، ليأكلوا ويشربوا في أماكنهم حيث يظلون إلى آخر النهار. ولم يكن الدخول مباحاً إلى قاعة الجلسة إلا لحاملي بطاقات خاصة، وبعض الذين توصلوا للحصول على بطاقة كان يبتاعها من السوق السوداء، واشتد الإقبال على شرائها حتى زادت أثمانها على أثمان أغلى المقاعد في أعظم روايات الأوبرا..

أخذت هذه القضية أهميتها من الغموض المظلم الذي أحاط بالمأساة، ومن الدهاء العجيب الذي تجلى في الرأس القوي الذي دبر الجريمة تحضيراً وتنفيذاً واحتياطاً لجميع الظروف، ثم من الدافع الغرامي الذي قيل أنه أدى إلى ارتكاب الجريمة، وأيضاً من أهمية أبطالها في المجتمع سواء في ذلك المجني عليه أو المتهمين أو الشهود، وأخيراً من الظروف الغريبة التي أدت إلى اكتشافها. أكثر من هذا. لقد ظلت أصداء هذه القضية تجوب أنحاء بلجيكا بعد انتهاء المحاكمة بعدة سنين فألفت في موضوعها رواية تمثيلية

(هزلية) نالت نجاحاً كبيراً في أحد المسارح، وكانت نشرات مختلفة تلصق على الجدران تطلب إعادة المحاكمة لأن الحكم مخطئ. وأخرج سيزار لمبروزو الإيطالي المشهور المتخصص في علم الإجرام دراسة عن شخصيتي المتهمين. وكان بول بورجيه المؤلف الفرنسي المشهور يصعد في تلك الأيام أولى درجات مجده، فأخذ من موضوع هذه القضية فكرة قصته المشهورة "أندريه كورنيليس"

***

ويحسن بنا أن نلخص موضوع هذه القضية في سطرين قبل سرد تفاصيلها ليسهل على القارئ متابعتها، فموضوعها من وجهة نظر النيابة أن (ليون بلتزار) قتل (جيوم برناي) المحامي الشاب بتحريض شقيقه أرمان بلتزار الذي كان يذوب غراماً في زوجة المحامي "جوليا بيشيه" ليتخلص منه ويفوز بها.

هذا هو الموضوع في كلمات، وإليك التفاصيل:

في أحد أيام سنة ١٨٧٢ شهدت مدينة أنتويرب ببلجيكا عرساً كبيراً كانت عروسه الحسناء الآنسة جوليا بيشيه ابنة تاجر ثري ورئيس حزب الأحرار. وكان الزوج هو الأستاذ جيوم برناي المحامي الشاب ذو المستقبل اللامع الذي كان مساعداً ثم شريكاً في مكتب الأستاذ فيكتور أوجيه نقيب المحامين.

كانت العروس فتاة ثرية ذات مكانة محترمة، اشتهرت بجمالها وسمو أخلاقها واستقلال روحها، واشتعال قلبها بحب الإنسانية والمثل العليا. وكان في المدينة أخوان هما: هماليون، وجيمس بلتزار، يديران عملاً لتصدير البضائع، كانا سعيدين بهذا الزواج لأنهما كانا سبب التعارف الأول بين العروسين.

لم يلبث العروسان بعد انقضاء شهر العسل أن دب بينهما النفور لاختلاف مزاجيهما ونظرتهما إلى الحياة؛ فقد كان الزوج وصولياً نفعياً لا يأبه بما يسمى بالمثل العليا. وكان يرى أن ثمرة كل إنسان من الحياة هي المال والسطوة، وإن الوسيلة للحصول على هذه الغاية أن تتحرى منفعتك الخاصة قبل كل شيء آخر، بينما كانت الزوجة كما قدمنا فتاة تزدحم في رأسها المثل العليا وتشتعل روحها بحب الإنسانية. وبعد فترة قصيرة وضعت الزوجة طفلاً في ولادة عسيرة، ثم أعلنت زوجها أنها لن تستطيع أن تعاشره بعد ذلك إلا كأخت له، وأولت الطفل كل اهتمامها.

في ذلك الوقت فوجئت الدوائر التجارية والمالية في مدينة أنتويرب بتوقف الأخوين ليون جيمس بلتزار عن الدفع، ثم إعلانهما الإفلاس، ثم اتهامهما بالتفالس، وكان من الطبيعي أن يسرع صديقهما جيوم برناي المحامي للوقوف إلى جانبهما يعاونه محاميان آخران. ولكن لم يكن في وسع المحامين الثلاثة أن يفعلوا شيئاً، وكان مركز الأخوين سيئاً حين برز على المسرح فجأة أكبر أخوة بلتزار وهو "أرمان بلتزار" الذي هو بطل هذه القضية الأول.

كان أرمان بلتزار مهندساً يحمل شهادات، ورجل أعمال، مليئاً بالذكاء والنشاط ويجيد عدة لغات، ماتت زوجته قبل ذلك بثلاث سنوات وتركت له طفلة هاجر بها إلى أمريكا حيث استقر فيها هذه السنوات وافتتح مع أخ رابع هو روبير بلتزار مكتبًا للتصدير، وكان عملهما يسير سيراً حسناً حينما فوجئا بخبر إفلاس شقيقيهما في أنتويرب واتهامهما بالتفالس.

أسرع أرمان بلتزار فصفى أعماله وحمل معه حوالي ثلاثمائة ألف فرانك، وأبحر إلى بلجيكا ووصل أنتويرب في الوقت المناسب لينقذ أخويه من السجن واسم أسرته من العار.. وحالما وصل اتصل بالأستاذ برناي، وتمكن من إنقاذ أخويه مضحياً بكل شيء يملكه، الأمر الذي أثقل كاهل أخويه – وخاصة ليون – بالمعروف فحفظا له هذا الصنيع.

وافترق الأخوان المفلسان، ورحل ليون إلى إنجلترا حيث اشتغل في تجارة غير شريفة اضطر إلى الارتحال بعدها إلى أمريكا. أما جيمس فقد بقي في أنتويرب واشتغل في عمل تجاري متواضع ولكنه مستقيم. وعاش مع أخيه الأكبر وأمهما التي باركت أرمان.

واشتهرت فداحة التضحية التي قدمها أرمان لأخويه، فعاش في أنتويرب محوطاً بأكبر قدر من الإجلال، وكان المحامي برناي رجلاً قليل الأصدقاء، فتقرب أرمان إليه وأولاه ثقته وكان يستشيره في كل شيئ، ويتباحث وإياه في أعمال أدبية كان يقوم بها. واشتركا معاً، كتفاً إلى كتف، في الجمعيات الماسونية، وكان أرمان من المفكرين الأحرار، وفي هذه الجمعيات برز أرمان

في المناظرات الفلسفية كخطيب من الدرجة الأولى، وأثار في نفوس أصدقائه أعمق عواطف الإعجاب بنفاسة آرائه، ووجد فيه برناي صديقاً أميناً أولاه كل ثقته. وكان من الطبيعي أن يدعوه إلى بيته حيث يقابل من الزوجين بالترحاب، وحيث كان يقضي وقتاً طويلاً. كانت أناقته في ملبسه وغشاوة الكآبة التي تغطي عينيه، وتأبطه بالسمعة العريضة التي اكتسبها من تضحيته لأخويه.. كل ذلك مضافاً إليه صغيرته الجميلة يتيمة الأم، كان مما أثار شعور العطف عليه في قلب الزوجة الحسناء المليئة بحب التضحية من أجل الغير والإحسان إلى الضعفاء.

جعلت تحاول أن تملأ على (مارييت) الصغيرة مكانة أمها التي لم يكن أرمان يكف عن التوجع عليها، كما أن أرمان جعل يحاول أن يعاونها على تنشئة طفلها على مبادئ البطولة والفضل التي كانت تتحمس لها.. ولم يمض وقت قصير حتى نشأت بين الزوجة الصغيرة الفاضلة وبين الرجل النبيل الذي ضحى بكل ما يملك من أجل أخويه، صداقة حلوة قوية.. هذه الصداقة لم تقلق بال الزوج، ولم يتوجس منها شراً، فضلاً عن أن صديق العائلة هذا، كان يفض كل خلاف ينشأ بين الزوجين، وكان يتلافى الزوابع قبل ثورتها بينهما، وكم من مرة وصل الأمر بينهما إلى الكلام في الطلاق فكان تدخله مما يمنع وقوع الكارثة.

ولكن هذا لم يمنع تطاير الشائعات الحقيرة عن كلا الزوجين، فقيل أن الزوج كان على اتصال غرامي بإحدى الخادمات وأن أرمان كان وسيط هذه العلاقة، وبدأ الخدم في بيت المحامي يطلقون شائعات أخرى عن العلاقة

التي تربط بين الزوجة وبين أرمان بلتزار، وقالوا أنها أكثر من الصداقة القوية، ولجوا في هذا الإثم لجاجة جعلت الشائعات تتسع ويزيد انتشارها.

ووصلت هذه الأقاويل إلى أسماع الزوج، فلم يعبأ بها أول الأمر لفرط ثقته في وفاء صديقه وعفاف زوجته، إلى أن كان أحد الأيام إذ قام نزاع كبير بين الزوجين وصل الأمر فيه إلى الكلام في الطلاق، وأخطر الخدم بأنهم سيحضرون للشهادة في المحكمة – في دعوى الطلاق – فقرروا الوقوف إلى جانب الزوج. وأسرعت إحدى الخادمات إليه وصبت في أذنه سماً (....) عما قالت أنه علاقة آثمة بين الزوج وصديق الأسرة.

تركت هذه القصة الخسيسة أثرها في الزوج وقلبه، وداخله الشك في صديقه، واستولى عليه غضب هائل، وجاء أرمان كالعادة ليتناول العشاء مع الزوجين ويبذل آخر جهده للتوفيق بينهما، ففاجأه الزوج بأنه لا يريد بقاءه في بيته تلك الليلة، وشيعه إلى الخارج قائلاً أنه سيزوره فيما بعد ليتحدث إليه فيما حمله على هذا التصرف.

وفي الصباح المبكر من اليوم التالي ذهب إليه حاملاً مسدسه، فأستقبله أرمان في هدوء وأخذ منه المسدس، وتكلم معه طويلاً حتى عاد إلى اقتناعه بطهارة زوجته وبراءة صديقه. وبعد يومين استؤنفت العلاقة بين الصديقين كما كانت..

وفي يوم آخر سمعت الزوجة الحزينة مناقشة سفيهة بين خادمتين، فأسرعت إلى زوجها تطلب إليه طرد إحداهما، وحاول هو أن يعدل بها عن

ذلك، ولكنها أصرت واستدعت الخادمة وطردتها.. حزمت الخادمة أمتعتها ثم تسللت إلى غرفة الزوج، وبذلت كل ما عندها من دهاء لتقنع الزوج بأن سيدة الدار إنما تطردها للتخلص منها لأنها تعلم أكثر مما يجب، ووعدته بأنها سوف ترسل إليه خطابات مفصلة عما تعرفه بين زوجته وصديقه. وكأنما كان قلب الزوج خصباً لتلقي بذور الشك، فنفح الخادمة بعض المال وأوصاها بالكتابة إليه.

ومرة أخرى عندما جاء أرمان إلى البيت طرده الزوج وقال له أنه سيخبره فيما بعد بالأسباب، وأرسل إليه في اليوم التالي خطاباً يؤكد له فيه استغناءه عن صداقته حرصاً على سمعة زوجته، وطلب إليه فيه ألا يرد على الخطاب وألا يحاول مناقشته بشكل ما في أي شيء يتصل بهذا الموضوع.

وبعد ذلك تدخل صديق حميم إلى العائلة هو المسيو دولنجيه رئيس محكمة الاستئناف الذي كان مقتنعا تمام الاقتناع ببراءة الزوجة وعفتها وطهارة ذيلها، تدخل هذا الصديق الكبير واستطاع صد الاتهامات التي وجهت إلى زوجته على غير أساس. وعندما استقرت الأمور على هذا، حاول المسيو دولنجيه استكمالاً لأسباب الصفاء أن يقنع الزوج بأن يدعو أرمان ثانية إلى استئناف علاقاته بالأسرة، فتردد أولا ولكنه عاد فرفض وأصر على الرفض.

لسنا في حاجة إلى كلام كثير عن موقف أرمان بلتزار، فقد تألم من إهانتين متتاليتين بطرده من منزل الزوجين، وهو وإن كان قد نال الترضية الكافية في المرة الأولى باعتذار الزوج إليه، فقد ظلت الإهانة الثانية تعمل

كالخنجر في كرامته. ولما يئس من نتيجة تدخل المسيو دولونجيه كتب خطاباً قوي اللهجة إلى الزوج يطلب إليه فيه الاعتذار إليه، وقال أنه لولا حرصه على كرامة الزوجة التي يمتلئ قلبه باحترامها والإعجاب بها لبحث عن وسيلة أخرى يقتص بها لكرامته. ولكن هذا الخطاب أعيد إليه دون أن يفض وقد كتبت عليه كلمة "مرفوض"

هذه الإهانة الجديدة زادت طبعا من متاعبه النفسية فحمل أخويه جيمس وروبير (وكان هذا الأخير قد جاء أخيرا من أمريكا) حملهما على أن يذهبا معا إلى برناي ويطلبا منه باسميهما تفسيرا لسلوكه نحو أخيهما.. صديقه القديم، فلم يزد على أن قال لهما أنه لم يقصد مطلقا إهانة صديقه القديم، ولكنه في الوقت نفسه أبى بإصرار أن يرى وجهه ثانية.

بذل أرمان محاولة أخيرة لتصفية الموقف، إذ تذكر أن برناي كان قد طلب إليه يوما أحد تقارير البرلمان الفرنسي ليستعين به في بحث تاريخي، فاستطاع أن يحصل على هذا التقرير وأرسله إليه، ولكنه رفضه

نترك هذا الموقف الآن عند هذا الوضع بين الصديقين من جهة، وبين الزوجين من جهة أخرى لنعود إليه بعد قليل ولننتقل إلى أمريكا حيث يستوطن الأخ الأصغر ليون بلتزار.

***

بعد أن هاجر ليون إلى أمريكا عاش هناك تحت اسم مستعار وجدد حياته وعمل بأمانة واستقامة مستخدما في محل تجاري كبير، وكانت عائلته قد تبرأت منه ما عدا أمه، وما عدا أرمان الذي كان يواليه بالمساعدات المالية وبالنصائح التي أثرت فيه تأثيرها فجدد شخصيته كرجل شريف مستقيم.

وفي شهر سبتمبر ١٨٨١ وصله خطاب، استنتجت النيابة فيما بعد أنه خطاب من أخيه أرمان، يطلب إليه فيه القدوم إلى أوروبا حيث كان قد دبر مقتل برناي مسخرا أخاه هذا في ارتكاب الجريمة باسم الصنيع الذي طوق به عنقه أكثر من مرة..

نترك للقارئ أن يحكم فيما بعد على مصدر هذا الخطاب، ونكتفي بأن نقول أن ليون أعلن أصحاب العمل بأنه مسافر إلى كندا ليؤدي واجبا نحو صديق عزيز. فلنعد الآن إلى أنتويرب.

***

لم يتبادل برناي وأرمان كلمة واحدة، بل لم يتقابلا وجها لوجه مرة واحدة، ومرت الأسابيع حتى كان أحد أيام شهر ديسمبر إذ وصل إلى المحامي خطاب من هامبورج مكتوب باللغة الإنجليزية وممهور باسم (هنري فوجان)؛ دهش المحامي لأنه لا يعرف هذا الاسم، ثم تلا الخطاب فإذا بمرسله يقول إن بعض أصدقائه في لندن أوصوه بأن يستفتيه في بعض المسائل القانونية نظرا إلى سعة علمه القانوني في مسائل التجارة ورجاه في أن يجيب على قائمة الأسئلة المرفقة، وأرفق بالخطاب شيكاً بخمسمائة فرنك..

رد المحامي على هذه الأسئلة برجوع البريد. وبعد أيام عاد (هنري فوجان) فكتب إليه من جديد يسأله فتوى أخرى في نفس الموضوع.

وبعد أيام أخرى كتب إليه يقول أنه سيمر بأنتويرب في طريقه إلى لندن، ويأمل أن يراه ليباحثه شفويا، ولكنه في اليوم التالي كتب إليه يقول أنه يعتذر من عدم الحضور نظرا لمرض ابنه.

مر بعد ذلك اثنى عشر يوما لم تصل إلى المحامي خلالهما كلمة من فوجان، وفي يوم ٤ يناير سنة ١٨٨٢ كتب إليه يقول أن أعمالا كثيرة ومشاغل مهمة تمنعه من زيارة أنتويرب، وبما أن المسألة مستعجلة وبما أن الشركة الملاحية التي يسعى إلى تأليفها قد تم جمع رأسمالها وهو ٥٠.٠٠٠ جنيها فهو يرجو الأستاذ برناي في أن يوافيه في بروكسل سريعا حيث قد استأجر منزلا رقم ١٥٩ بشارع لالوا القريب من المحطة

ليس من آداب المحاماة أن يسعى المحامي إلى موكله، خصوصا إذا لم يكن له به سابق معرفة، ولكن هنري فوجان أبدى من الأسباب ما جعل جيوم برناي ينبهه بأنه سيلبي دعوته يوم الأحد ٧ يناير، وسيسافر إلى بروكسل حيث يوافيه في المنزل رقم ١٥٩ شارع لالوا. سافر المحامي في هذا اليوم بعد أن وصل ابنه إلى المدرسة، ولم يعد بعد ذلك أبدا.. أحد عشر يوما مرت بعد يوم ٧ يناير ولا يعلم أحد بمصيره الأليم إلا قاتله أو قتلته.

***

في آخر نهار اليوم الذي اختفى فيه جيوم برناي قلقت زوجته، وظنت في أول الأمر أنه ربما يكون قد عرج على أهله في بروكسل لزيارتهم، فأمرت الخدم بعدم إقفال الباب الخارجي أثناء الليل. وفي الساعة الثانية صباحا أيقظت الخدم وسألتهم عن سيدهم فأنبأوها بأنه لم يحضر بعد.

وفي الصباح لم يكن قد حضر، فطلبت إلى طفلهما أن يبعث ببرقية إلى جديه، يسألهما عما إذا كان أبوه قد زارهما أمس فجاء الرد بالسلب. زاد قلق الزوجة فاستشارت والديها وبعض الأصدقاء، ومنهم محامون من زملاء زوجها، واستشارت كذلك أرمان نفسه؛ افترضوا جميع الحالات.. افترضوا فقدان الذاكرة، أو حادثا فجائيا.. وافترضوا أيضا أنه ربما يكون قد فر مع إحدى النساء.. ولكن لم تظهر علامة واحدة تؤيد هذه الافتراضات، وفضلوا أن ينتظروا أربعا وعشرين ساعة أخرى قبل أن يخطروا البوليس.

ولو أنهم فتشوا بعناية أدراج مكتبه لعثروا على مراسلات وبرقيات الزبون المجهول هنري فوجان، وعرفوا منها كيف يقتفون أثره حيث الموعد الرهيب في المنزل رقم ١٥٩ شارع لالوا.. ولكن عجلة الساعة التي كانوا فيها جعلتهم لا يلتفتون إلى هذه المراسلات إلا فيما بعد حيث بدرت البادرة التي أضاءت الطريق.

أخطر النائب العمومي ورئيس البوليس يوم ١١ يناير، وبدأت تحريات واسعة النطاق، وظهرت في الصحف نشرات بأوصاف "جيوم برناي" ونبأ اختفائه. وفي هذه اللحظة، بدأ بعض الخدم الذين كانوا يعملون فيما مضى

عند المحامي، كما بدأ وكيل مكتبه يتشككون في أنه ربما يكون قد ذهب ضحية لمؤامرة تتصل بشكل ما باختلافه مع أرمان بلتزار.

ولكن تصرفات أرمان قبل وبعد الاختفاء كانت بحيث جعلت الشكوك تتبدد، فإنه لم تبدر منه بادرة تدل على ارتباك ما، أو على أنه يعاني تفكيرا داخليا غير عادي. وفي ٥ يناير أي قبل الاختفاء بيومين كان قد ألقى محاضرة قيمة في جمعية المهندسين في أنتويرب عن معرض باريس الكهربائي أدهش بقدرته وتمكنه أقدر الاختصاصيين من الذين سمعوه، وعندما علم بنبأ اختفاء برناي بدا عليه كأنه تأثر للنبأ تأثرا عميقا، وصرح بأنه على استعداد لأن ينسى ويصفح عن كل ما أساء إليه صديقه المختفي، وكانت كل حركاته وإشاراته تنبئ عن منتهى هدوء العقل والضمير. وفي أثناء البحث عن المختفي سافر واثنان إلى مدينة لييج كخبير لمشروع كبير، فباشر المهمة بذكاء وعلم واسع بالموضوع مما دعا أصحاب المشروع لأن يعهدوا إليه بمهمة تنفيذ الآراء القيمة التي أبداها ووافقوا على طلبه الاستمرار في الإقامة في أنتويرب بجوار أمه العجوز حيث تتلقى ابنته تعليمها، وحيث يقيم أصدقاؤه العديدون..

فأية شكوك إذن يمكن أن تقف أمام هذه الظواهر الدالة على منتهى هدوء الضمير والمظهر البريء؟

وفي يوم ١٩ يناير وصل إلى المحقق خطاب من المدعو (هنري فوجان) من مدينة بال، مكتوب بالإنجليزية يقول أنه فزع عندما قرأ في

الصحف نشرة تسأل عن أخبار جيوم برناي، وأنه أدرك لدى قراءة النشرة أن خطابه الذي تركه في المنزل رقم ١٥٩ شارع لالوا ببروكسل لم يقرأ بعد، وأن الحادثة المفجعة التي وقعت في ذلك المنزل لم تكتشف بعد.. وقال بعد ذلك أن موت برناي وقع قضاء وقدرا في ذلك المنزل يوم ٧ يناير إذ كان يتفرج على مسدس له فانطلقت فجأة رصاصة أصابت المحامي وقضت عليه، وعندئذ استولى عليه الفزع فآثر الفرار. وقال أخيرا أنه سيوصل زوجته وطفله إلى شمال فرنسا ثم يعود سريعا ليضع نفسه تحت تصرف العدالة.

حالما استلم رئيس النيابة هذا الخطاب أرسله إلى الأستاذ دلفو المحامي ليعرضه على مدام برناي، وفي الوقت نفسه اتصل بزميله في بروكسل وطلب إليه أن يفتش المنزل بسرعة. وعندما رأت الزوجة هذا الخطاب قالت: "لكني أعرف هذا الخط.. لقد شاهدته منذ أيام في أدراج زوجي"... وأسرعوا إلى المكتب حيث عثروا على المكاتبات التي أشرنا إليها.

وذهبت الأرملة الشابة إلى بروكسل لتتعرف على جثة زوجها ولما عادت أحاط بها والدها وقليل من الأصدقاء وبينهم أرمان بلتزار ليحاولوا تعزيتها وإدخال السلوى إلى قلبها.. وكان أرمان قد ذهب إليها بصحبة والديها اللذين كانا أبعد الناس عن الارتياب فيه.

***

هل مرت سحابة من الشك في رأس الزوجة الأرملة عندما سألت أرمان بلتزار بغتة في إحدى المرات في حضور الأستاذ دلفو المحامي طالبة إليه أن

يقسم لها بأنه لا يعرف المدعو (هنري فوجان) المجهول ولم يسمع؟؟.. بدا على أرمان كأنه أهين، وتساءل عما إذا كانت مجنونة أو أصابها مس حتى تسأله قسما كهذا، وكانت احتجاجاته تبدو مخلصة بحيث أكدت اقتناع الزوجة والأستاذ دلفو بابتعاده عن هذه الفاجعة. وأخيرا حنطت الجثة ونقلت إلى أنتويرب وشيعت في موكب رهيب سار في مقدمته أرمان بلتزار الذي كان عميق التأثر بادي الألم أكثر من أي شخص آخر.

***

فتشت النيابة والبوليس المنزل رقم ١٥٩ شارع لالوا. فوجدوا جثة القتيل في غرفة المكتب، ملقاة فوق كرسي كبير كأنما هو نائم وعثروا على آثار دماء فوق شاربيه وفوق السجاد (وهذا السجاد له أهمية أخرى في القضية سنشير إليها فيما بعد)، وأكثر الظواهر المادية التي عثروا عليها ترجح وقوع الحادث قضاء وقدرا كما قال هنري فوجان الغامض في خطابه إلى رئيس النيابة، غير أن المحققين لم ينخدعوا لأول وهلة بهذه المظاهر، ووظيفة المحقق أن يتشكك دائما في كل حقيقة حتى يصل إلى الغاية.

ولذلك افترضوا أن هذه المظاهر كلها مرتبة لتكون شركا يقع فيه القتيل أولا، ثم لتضلل بها العدالة بعد ذلك، واستمر التحقيق يتأرجح بين هاتين النظريتين عدة أيام.

ولم يكن من العسير الوصول إلى بعض المعلومات عن هنري فوجان الغامض في بروكسل، واستطاعت التحريات أن تثبت أنه كان أسود الشعر،

أسمر اللون، يلبس نظارات سوداء، ولكن هذا لم يكن كافيا، إلى أن وقعت يد قاضي التحقيق على شيء صغير لا يستلفت إلا نظر شارلوك هولمز، هذا الشيء، ألقى في ظلام القضية المعقدة بصيصا من النور، فقد لاحظ القاضي في مشط عثر عليه في غرفة النوم وجود بضع شعرات شقراء اللون.. وبما أن التحريات أثبتت أن هنري فوجان كان أسود الشعر، أفلا يحتمل أن يكون المجرم قد دخل في شعر مستعار وتحت تنكر ماهر؟

ثم ألم يكن هنري فيجان الذي أرسل يقول للنيابة أن الحادث وقع قضاء وقدرا.. ألم يكن قد وعد بأنه سيضع نفسه تحت تصرف العدالة في أقرب وقت؟ فأين هو؟ لقد طال انتظاره..

بدأ الأهالي في أنتويرب يتذمرون من بطء التحقيق، ولسنا في حاجة لأن نلفت النظر مرة أخرى إلى أن هذه الجريمة أحدثت أعمق الأثر في الرأي العام، فأخذ كل فرد يقوم بنفسه بالتحقيق ويتهم ويحاكم ويصدر الحكم.. قالوا: إذا كان أرمان بلتزار هو الوحيد الذي يستفيد من موت برناي لكي تصبح امرأته أرمل فيستولى عليها، وإذا كان اسم هنري فوجان هو اسم مزيف لرجل مزيف بشعر مزيف؛ فمن يكون القاتل إذا لم يكن ليون بلتزار الأفاق؟ أليس من الجائز أنه جاء من أمريكا متنكرا ليؤدي هذا العمل لشقيقه أرمان الذي أحسن إليه وطوق عنقه بأكثر من صنيع واحد؟

قالوا هذا، وبدأت يد خفية تخط بالطباشير عل الجدران كلمات تقول: (ابحثوا عن أرمان.. ابحثوا عن ليون)..

وضع أرمان تحت المراقبة، وفي أحد الأيام قرر قاضي التحقيق أن ينتقل إلى بيته لاستجوابه، وبدلا من أن يجد نفسه أمام رجل تحوم حوله الشبهات، رأى أنه أمام رجل مهيب الشخصية ومتمالك نفسه. سأله القاضي عن علاقته بزوجة القتيل، فأجابه كما يجيب أي رجل شريف قائلا أنه مستعد لأن يموت قبل أن تسقط من شفتيه كلمة تمس امرأة يقدسها كما يحبها، وأنه حرص على ألا يراها بعد جنازة زوجها حتى لا يعطي فرصة للقيل والقال.

وعندما أنبأه القاضي بالشبهات الموجهة ضد أخيه ليون بلتزار، أقسم برأس ابنته أن أخاه في أمريكا وقدم إليه مراسلات جرت بينه وبين أخيه هناك. انتهى قاضي التحقيق إلى الاقتناع تماما ببراءة أرمان، وخرج من عنده وهو يقول: "إن هذا الرجل أما أن يكون بريئا، وأما أن يكون أقدر ممثل رآه العالم"

ومع ذلك فإن الشعور العام كان يتفاقم خارج التحقيق ضد ليون، وأخذ تذمر الناس يزداد وجعلوا ينعون على السلطات تهاونها وإهمالها، ويشيرون بأصابعهم وألسنتهم وكتاباتهم فوق الجدران إلى أرمان وليون بلتزار. وشددت الرقابة على أرمان، فلم تكن حركة من حركاته لتخفى على رجال البوليس السري الذين كانوا يترصدونه ويتعقبونه في كل مكان.

***

كان من الذين اصطفوا أرمان صديقا بعد مجيئه من أمريكا طبيب من بروكسل اسمه الدكتور ريمي لافيزيه، ولما أحس أرمان بأنه رجل مشتبه فيه ومراقب ذهب إليه في بروكسل وبسط له الموقف السيئ الذي هو فيه، وسأله

أن يؤدي له خدمة بسيطة هي أن يكون وسيط المراسلات بينه وبين سيدة لا يريد أن يساء إليها في الوقت الذي توضع فيه روحاته وغدواته تحت مراقبة حائرة، والمهمة الأولى هي أن يتفضل الدكتور الصديق بإحضار رسالة تنتظر أرمان من هذه السيدة في محطة الشمال.

كان هذا الطبيب يستنكر أشد الاستنكار الشبهات الظالمة التي كانت تحوم حول هذا الصديق البريء، فأبت مروءته أن يخيب رجاءه، ولم يتردد في قبول هذه المهمة، وأخذ يتولى إرسال وتسلم خطابات عديدة. غير أنه حدث في يوم ٢٦ فبراير حادث غير عادي يلفت النظر، وذلك أن الدكتور لافيزيه رأى – احتجاجا على الإشاعات التي كانت تدور حول صديقه – أن يدعو هذا الصديق إلى مأدبة عشاء مع مجموعة من الكبراء..

اكتمل عدد المدعوين، إلا أرمان، فظلوا ينتظرون وصوله من أنتويرب، وبعد فترة قصيرة وصل، ولما دخل وقف شقيقه جيمس – وكان بين المدعوين المنتظرين – وقال مازحا:

– أيها السادة.. لي الشرف أن أقدم لكم.. القاتل..

هذه العبارة لم تقابل بما كان يتوقعه لها جيمس من الضحك والمرح، ولكنها قوبلت بصمت ووجوم. واصفر وجه أرمان وارتعش، واستمرت السهرة طول الليل يخيم عليها الضيق والضجر.

وبعد انصراف الضيوف، انفرد المضيف بزوجته التي علقت على ما حدث تعليقا مفزعا، وقالت أن أرمان بعد هذه المزحة غير الموفقة التي بدرت من أخيه، اصفر لونه وظل طيلة السهرة يبدو في هيئة الرجل الذي يستحوذ على عقله الباطن رعب خفي، وأنها تشك فيما إذا كانت لهذا الرجل علاقة بجريمة شارع لالوا.. وأخبرت زوجها – لمصلحة أولاده وإرضاء لضميره – أن يكف عن القيام بمهمة الرسول بين أرمان وبين صديقته، وأكثر من هذا، قالت له أنه يجب عليه أن يفكر فيما إذا كان من واجبه أن يبلغ النيابة عن هذه الرسائل.

كان إيمان الدكتور لافيزيه بصديقه قوياً، ففسر ارتياعه لمزحة الليلة بأنه راجع إلى قلقه على أخيه ليون، وثارت مروءته ضد فكرة خيانة الثقة التي أودعها فيه صديق ألم به ضيق.. وبعد مناقشة استمرت طول الليل، وعد الطبيب زوجته أخيرا بأن يكف عن القيام بمهمة تسلم وإرسال الرسائل، وعندما جاءه أرمان في يوم ٣ مارس يطلب إليه إحضار رسالة أخرى اعتذر إليه. ولكن في اليوم التالي جاءه الساعة العاشرة مساء ورجاه بحرارة أن يتولى إرسال برقية أخيرة فلم يستطع إلا أن يجيبه إلى طلبه وذهب معه إلى مكتب التلغراف، ثم عاد إلى بيته من غير أن يهجس في نفسه هاجس عن القنبلة التي توشك أن تنفجر.

جلس الطبيب في غرفة مكتبه وحوالي الساعة الواحدة من الصباح سمع جرس الباب الخارجي يدق بقوة. فأسرع يطل من النافذة، وإذا بصديقه

أرمان في الشارع يطلب إليه أن يقذف له بالمفتاح لأن عنده شيئا مهما، فنزل الطبيب يستقبله.. دخل أرمان وقال هامسا وهو يلهث:

- هل أستطيع أن أثق بك..؟

أجابه الطبيب.

- طبعا، ولكن ماذا هنالك؟

دخلا معا غرفة المكتب. وهناك قال أرمان

- لقد حدث شيء فظيع.. كارثة. لقد فهم ليون برقيتي خطأ. سيكون هنا في بحر ساعات قليلة، فهل تخفيه عندك؟

ليتصور القارئ مقدار ما استولى على الطبيب الصديق من الفزع، إذن فلم تكن السيدة التي كان يعين صديقه على مراسلتها سوى ليون بلتزار.. لم يتركه أرمان يفكر طويلا، وأسرع يقول ويكرر:

- هل تستطيع أن تخفيه عندك؟

صاح الدكتور..

- لا.. لا.. طبعا لا

زمجر أرمان وقال بيأس:

- ماذا أصنع إذن؟

قال الطبيب:

– اذهب إلى المحطة بنفسك وامنع ليون من النزول هنا

خرج أرمان من المنزل كالمجنون وترك صديقه الطبيب حائرا؛ إنه لم يفهم شيئا مما حدث فظن أن ليون عند سماعه بحادث القتل ونتائجه قد أسرع بالحضور ليثبت براءته. نعم. ولكن لماذا يعتبر أرمان وصوله كارثة؟.. أيقظ المسكين زوجته وقص عليها ما حدث. لم تكن دهشتها وفزعها أقل مما أصاب زوجها. أية مؤامرة كان زوجها على وشك أن يزج فيها؟

قالت له أنه لا يجب أن يتردد في تبليغ السلطات، ولكن الطبيب النبيل ظل متردداً.. أليست دواعي الصداقة وثقة الصديق أحق بالاستجابة حتى من الروابط العائلية والالتزامات الاجتماعية؟

وأخيراً قرر– لكي يضع حد لهذا العذاب النفسي– أن يستشير في الموضوع بعض أصدقائه من رجال القانون، وهو جميعا رجال شرفاء وممتازون أمثال المحامي العظيم الأستاذ بول جونسون والأستاذ أوجين روبير، ومن الغريب أن هذا الأخير كان أحد من تولوا المرافعة عن أرمان فيما بعد.

نصحوه جميعا بالإسراع في تبليغ النيابة؛ ففعل، ولم يتركه رئيس النيابة يخرج حتى قطع على نفسه عهداً بألا يخبر أحدا بما حدث.

في اليوم التالي جاءته مدام بلتزار– والدة أرمان– تزوره وتسأله عن الأخبار إذا كانت تعرف أنه صديق أرمان وقد مضى عليها يومان لا تسمع عنه خبرا.

كان أرمان قد قبض عليه في المساء السابق في أنتويرب ونقل سرا إلى سجن بروكسل. وكان الطبيب يعرف هذا، ولكنه ظل عند وعده فلم يتكلم وقال لها: "لا أعرف شيئا".

وفي اليوم الثالث جاءته أيضا ولم تكن بعد قد عرفت شيئا مما حدث. وفي هذه المرة اضطر أن يخبرها بكل شيء في كثير من الترفق فسقطت الأم المسكينة على الأرض وهي تصيح: "ولداي.. ولداي قاتلان وكان ذلك من أجل هذه المرأة.. ولداي قاتلان؟.. رباه لماذا أعيش حتى أسمع هذا؟..."

وخرجت المرأة الشقية تتعثر في اليأس وتتمزق من الألم، فإذا بباعة الصحف يملأون الشوارع هائجين ..

"القبض على أرمان بلتزار .." وكان الناس يتزاحمون عليهم بالمناكب.

***

قبض على أرمان، ولكن ليون ظل مختفيا، وأعيد استجوابه فأصر على أن أخاه في أمريكا. وظل على إصراره هذا إلى يوم ٩ مارس، وفي ذلك اليوم استطاع البوليس القبض على ليون. وسئل أرمان إذا كان لا يزال مصرا على أن أخاه في أمريكا.. فأجاب: نعم.. قال له قاضي التحقيق:

- صحيح .. إذن فليون مازال في أمريكا.. هه.. فانظر خلفك إذن..

وفتح الباب الفاصل بين الغرفتين، وإذا بليون في الغرفة الأخرى ومعه الضابط الذي قبض عليه.. حاول أرمان أن يتمالك نفسه ويستر اضطرابه. وقال:

– ماذا.. ليون كان متنكرا في زي هنري فوجان.. أوه.. يا لك من شقي..

أحنى الأخ الأصغر رأسه وتمتم قائلا:

– يا أخي المسكين.

بعد هذه المواجهة المفجعة، أخذ التحقيق اتجاها آخر. أخبروا أرمان ببلاغ صديقه الدكتور لافيزيه، فلم يستطع أن يصمد على إنكاره الجهل بحضور أخيه من أمريكا إلى أوروبا، واضطر أن يغير اتجاه دفاعه فقال ما يأتي:

"كان عل ليون أن يحضر إلى أوروبا بناء على طلب أحد الماليين واسمه هنري موراي ليقوم بتحريات في بلجيكا وألمانيا وهولندا وإنجلترا عن مشروع إنشاء شركة بواخر. ونظرا إلى ماضيه السيئ اضطر أن يغير اسمه في جميع خطوط رحلته. وقد قابلته في باريس إذ كان يرغب في استشاراتي في المشروع فنصحته بألا يمضي فيه.. وأخيرا في مقابلتنا الثالثة وعدني بأن ينقض اتفاقه مع موراي ويعود إلى أمريكا.

"عدت إلى أنتويرب، ولما لم تصلني منه أنباء تأكدت أنه سافر. وهنا اختفى المجني عليه جيوم برناي. فلم تمر في ذهني سحابة من الشك عن أخي بدليل أني عاونت أسرة المختفي في البحث عنه. وفي اليوم التالي للاختفاء فوجئت ببرقية من أخي يطلب مقابلتي في مدينة ميستريخت وهناك أخبرني بكل شيء. فقال لي أنه بعد ما ترك باريس تقابل مع موراي الذي أقنعه بعدم النزول عن رأيي، وأنه اضطر إزاء هذان يستشير بعض الخبراء عن المشروع. وجاء في رأسه اسم جيوم برني المشهور بسعة علمه في هذه المسائل وأنه نظرا إلى الخلاف الذي كان بيني وبين برناي رأى أن يتنكر حتى لا يعرفه وفي هذه المقابلة وقعت الحادثة ففر إلى ألمانيا

"فزعت لهذه القصة، وكان كل ما خطر لي أن أجعله يكفر عن هذه الجريمة غير المتعمدة، وأوشكت أن أسلمه للبوليس في بروكسل مع اعترافه، ولكني قدرت أن كل مما يعرف ماضيه التعس لن يصدق بوقوع الحادثة كما يرويها هو. وأخيرا نصحته بأن يبتعد إلى أقصى مكان. إلا أني فكرت في جثة هذا الصديق القديم، الراقدة في ذلك المنزل. فأسرعت إلى الاتصال بليون وأمليته خطابا إلى النيابة حتى تأخذ السلطات علما بما حدث.. وفي خلال ذلك يكون أخي قد فر إلى أمريكا

"صحيح أنني ابتكرت في مبدأ الأمر دفاعا أثبت به أن أخي في أمريكا. ولكن من ذا الذي يلومني على هذا.. لقد كنت أحاول أن أنقذ أخي من مصير فظيع؛ فكنت بهذا شريكا له. ولكني قد كنت أفعل أكثر من هذا في سبيل أخي.. إنني استنجد بكل إحساس كريم في أي رجل شريف"

هذا ما قاله أرمان، طبعا في غير حضور ليون المتهم الآخر!!

والغريب أن ليون عند استجوابه قص نفس القصة بكل تفاصيلها، مع أنهما لم يتقابلا في السجن. والمفروض أنهما في أخر لحظة كانا يقدران عدم القبض عليهما. فالمعقول أن تؤخذ روايتهما على أنها صحيحة، إلا إذا قيل أنهما دبرا الجريمة فافترضا جميع الحالات وتوقعا جميع الظروف حتى ظرف القبض عليهما. فإذا صح الفرض الأول فإن أرمان يكون بريئا إلا من محاولة إخفاء أخيه. وسنرى فيما بعد رأي الدفاع والنيابة.

أما كيف وقعت الحادثة فإن ليون يقول أنه عندما تقابل متنكرا مع المجني عليه، ميزه هذا الأخير فصاح باسمه الحقيقي واستفزه وقال أنه سيبلغ البوليس، وعندئذ انطلقت الرصاصة من يد ليون بلا وعي فأصابت برناي الذي سقط على السجاد، فاستولى الفزع على ليون ثم ركع بجانب القتيل ورفعه من الأرض وأرقده على الكرسي حيث عثروا عليه بهذا الوضع

ولما سئل ليون عمن زوده بالنقود.. بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنكا التي رحل بها من أمريكا وتنقل ودفع مصاريف الاستشارات الفنية والقانونية وغير ذلك، قال أنه موراي.. فلما سئل عن مقره قال أنه لا يعرف الآن عنوانه، ويظنه سيأتي عندما يسمع بالخبر

ولكن موراي لم يحضر مطلقا، وقالت النيابة أنه اسم مخترع للتضليل، وقال الدفاع أن موراي اسم حقيقي ولكن صاحبه اختفى خوفا من أن يصيبه رشاش من الجريمة..

بدأت المحاكمة في ٢٧ نوفمبر ١٨٨٢ وكان رئيس الجلسة هو المسيو دومور، وكان قاضيا واسع الشهرة بنزاهته المطلقة. وتولى تمثيل النيابة الأفوكاتو العمومي المشهور فان مالردحم وتولى الدفاع عن المتهمين خمسة من أشهر المحامين هم

١- أدمون بكار وهذا يعرفه رجال القانون إلى الآن بمؤلفاته الفذة المشهورة

٢- لوجون

٣- أوجون روبير وقد مر ذكره

٤- فان كالستر

٥- شوفنفلد .. وليس آخر

وأحسن وصف لهذه القضية هو ما جرى على ألسنة الناس عنها وقتئذ من أنها كانت مباراة فذة بين مردة الخطابة.

***

كان المتهمان هادئين، شديدي التأنق في ملبسهما وخاصة أرمان الذي استدعى الالتفات بهدوئه العجيب وضبطه لأعصابه. كان كأنه يتفرج على محاكمة رجل آخر، ووقع في خلال المحاكمة حادثان لا يتسع المقام لسردهما ونكتفي بأن نقول أنهما دلا على أن هذا الرجل كان يأخذ المحاكمة على أنها جاءت نتيجة لخطأ تقدير النيابة، كان شديد الثقة ببراءته، وواثقا من كلمة القضاء في النهاية، وإلا فلو أنه كان مجرما فإن تصرفاته كانت تستدعي

مجهودا عصبيا خارقا لكل القوانين البشرية، ويكون الله قد ألهمه هذا الهدوء العجيب في ضميره وقلبه. وفي اعتقادي أن الدور الشاق في هذه القضية لم يكن دور النيابة، ولم يكن دور المحامين. ولكنه كان دور المحلفين.

***

كانت مرافعة الأفوكاتو العمومي قطعة فنية ظل الناس يقرؤونها ويكررون قراءتها حتى حفظها الكثيرون عن ظهر قلب. وكان النظارة طول يوم مرافعته يستمعون بصمت كأنه الموت. وقد بدأ مرافعته بتحية مؤثرة إلى ذكرى المجني عليه فقال: إنه من واجبي أن أحمي ذكراه وأدافع عنها، ذكراه التي أنكرها الجميع وأساءوا إليها. إن من واجبي أن أسألكم التعويض للعدالة، والتعويض لحق كل روح بشرية. ألم نر أرملة الفقيد بلا شعور، بلا دموع لا تتصدق إلا بعبارات الصفح المثلوج تنثرها فوق قبر الرجل الذي كان أبا لطفلها؟

وتناول الأفوكاتو العمومي بعد ذلك ادعاء ليون بلتزار وقوع الحادث بلا تعمد، فدحضه وسخر منه، وأخذ يثبت أن الحادث بكل تفاصيله مدبر ومرتب خرج من الرأس الماكر رأس أرمان بلتزار الذي يحب زوجة القتيل ويتحين فرصة الثأر من الزوج الذي طرده من بيته... وقال:

"أرمان بلتزار الرجل المتكبر، أذلت كبرياؤه، وطرد من بيت برناي، فأحرقه الظمأ للثأر، وفوق ذلك، فقد كان يحب.. يحب بحيث دفعته عواطفه المجنونة إلى التخلص من الزوج الذي كان يقف في سبيله.. لم يكن بغضك الذي دفعك إلى قتل برناي.. لا.. وإنما رغبتك في الاستيلاء على امرأته،

ولهذا لجأت إلى ليون تطلب معونته لأنك تعرف أنه سيكون آلة صماء في يدك.. نعم لقد أنقذته من السجن والعار مضحيا بثروتك وبمستقبلك فأصبح مدينا لك بكل شيئ..

"هذا الأفاق... الهائم على وجه الأرض.. لم يكن ليرفض لك مطلبا حتى ولو كان دم عدوك، وببراعة شيطان أدخلته تحت تنكر ما هو عليه، لقد خلقت منه "فوجان" حتى تقصر يد القانون عن البطش بالقاتل، وحتى تستطيع الاستيلاء على المرأة التي تحبها، والتي – مهما كانت قلة أكثرتها بزوجها – كانت ترتعد جزعا من يدك التي تقطر بدمه"

وتناول الأفوكاتو العام بعد ذلك وقائع القضية فمزق دفاع المتهمين تمزيقا، وكان النهار قد أشرف على نهايته فأجلت بقية المرافعة إلى اليوم الثاني حيث انقطعت مرتين أو ثلاثا بسبب وقوع حوادث إغماء لبعض السيدات من شدة الزحام أو من شدة التأثر.

اتجه الأفوكاتو العمومي إلى ليون بلتزار وقال:

أما زلت مصرا على أن هنري موراي قد انتدبك لتنشئ مشروع شركة الملاحة الدولية.. أنت المفلس القديم، والمغامر الأفاق والسمسار الهائم لبيع الملابس الداخلية ولوازم السيدات.. أتقول نعم.. حسنا: لا يوجد في الدنيا إنسان يصدقك.. وبعد: ألم يكن بين كبار المحامين في أنتويرب محام تلجأ إليه لتستفتيه في مشروعك الموهوم سوى جيوم برناي العدو اللدود لأخيك.. سوى الرجل الذي لم تجرؤ على أن تقابله إلا متنكرا..

إنك اخترت برناي لأنك لم تكن تطلب محاميا، ولكنك كنت تطلب عدو أخيك.. زوج المرأة التي كان يذوب غراما فيها.. العقبة التي يجب أن تزول من وجهه مهما كان الثمن.

وتناول الأفوكاتو العمومي تدبر القضية من وجهة نظر النيابة، واستدرج المجني عليه إلى المنزل الرهيب حيث قابله ليون بلتزار متنكرا في صورة هنري فوجان وأخذ يصف الموقف الأخير من المأساة فقال أن ليون قابل المجني عليه عندما طرق الباب وساعده في خلع معطفه، وتحدث وإياه عن الجو، ثم قال موجها الكلام إلى ليون:

"جعلته يمشي أمامك، وصعد درجات السلم، وفي اللحظة التي مر فيها من باب غرفة المكتب أطلقت رصاص مسدسك على مؤخرة رأسه، في نقطة الحياة. لقد قتلت الرجل الذي وقف في وجه أخيك، والذي طرده من بيت غرامه.. سقطت لحيتك بجانب المكتب، وإني لأعتقد أن برناي لم يكن يعرف وياله ..... ولو أنه عرف، فيا لهول الفزع الذي كان يملأ اللحظات الأخيرة من حياة تلك الضحية... ثم... ثم فررت كما يفر أي مجرم يتعقبه الغضب.. فررت من بيت الدم والخيانة حيث كان أخوك قد نصب شرك الجريمة...

"لقد انتهيت.. أثبت الجريمة وبواعثها.. يا حضرات المحلفين إنكم تمثلون عدالة شعب نبيل، وليس يداخلني خوف من القرار الذي تصدرونه"

بدأت بعد ذلك مهمة الدفاع، وكان أول المترافعين الأستاذ أومون بيكار الذي كان رجال القانون يسمونه "عمنا الفقيه" وكان في تلك الأيام قد بلغ أوج مجده في المحاماة.. بدأ مرافعته بكل شجاعة، محتجا على النظارة، تلك الجماهير التي تتدخل لضوضائها في مثل تلك المحاكمة الخطيرة، فلا يفتح المتهم فمه بكلمة حتى ترتفع الصيحات بعبارات التكذيب، ثم قال:

"لا شك أنهم يريدون أن يأخذوا الأمور كلها على هواهم، وأن يعقدوا هم المحاكمة في ميدان عمومي، حيث يقيمون من أنفسهم – وهو عميان بالغضب، وبالجهل وبالتعصب السياسي – قضاة ومحلفين وجلادين"

ثم أخذ يفند قرار الاتهام، وقال أنه يوافق النيابة على اعترافها بأنه لم يكن ثمة علاقة آثمة بين أرمان وبين مدام برناي.. ولكن إذا كان ذلك قد ثبت، وإذا كانت النيابة لم تقدم دليلا على أن مدام برناي لم تكن تبادله عاطفة، فإن الجريمة المنسوبة إلى المتهم تصبح نتيجة بلا سبب والرجل الذي له مثل الذكاء الباهر الذي يمتاز به أرمان بالتزار لا يمكن أن يندفع إلى القتل ليستولي على امرأة ثبت أنها لا تبادله عواطفه، بل ثبت أكثر من هذا.. أنها اقترحت عليه مرة أن تزوجه من إحدى صديقاتها فرفض معتذرا بأنه ما زال وفيا لذكرى زوجته الراحلة..

"إن مدام برناي لم تكن أكثر من صديقة عزيزة لأرمان الذي أعجبت به لفداحة التضحية التي بذلها لأخويه والتي أولت ابنته اليتيمة عطف الأم. وبراءة هذه الصداقة لا تزكيها فقط عفة هذه السيدة. بل حالتها الفسيولوجية

إذ أثبتت الجلسة السرية التي سمعت فيها أقوال طبيبها الخاص، أن من المستحيل عليها أن تعاشر رجلا"

وبعد ذلك رسم المحامي صورتين متناقضتين للزوجة وزوجها، فوضع صورة ملائكية للزوجة في إطار تذهبه العفة والفضيلة والإنسانية والشرف، وجعل الزوج رجلا جشعا يخضع دينه وفلسفته لرحمة مصالحه المادية. ثم قال: "وفوق ذلك، لقد اشتهر بين الناس إن ذلك الزوج عندما عجز عن معاشرة زوجته أخذ يبحث عن بدلها في كل مكان، وأوشك أن يهجر زوجته وطفله ويفر مع خادمته.. إنه لم يكن تعيسا كما يصورون.. وإذا كانت حياته مع زوجته أليمة، فإنها لم تكن الجحيم الذي صوروه، فإن مدام برني تنازلت عن الطلاق لمصلحة ابنها؛ فهل عارضها في ذلك أرمان.. كلا، وبالعكس– وهذا دليل آخر على براءة أرمان

"ثم من ذا الذي يصدق أن الرجل الذي أنقذ أخاه مرتين من الخراب ومن العار، والذي ضحى من أجله ما ضحى، من ذا الذي يصدق أن هذا الرجل نفسه يسلح أخاه هذا لارتكاب جريمة فظيعة في الوقت الذي كان فيه قد بدأ يحدد حياته يقيم حاجزا بينه وبين ماضيه التعس.. إن من الحمق أن نتصور أنه عاون أخاه في جلد، وأولاه خالص النصح خلال سنوات طويلة من الخيبة وسوء الطالع ليجعل منه في النهاية قاتلا!

"كان أرمان يعبد ابنته، وقد أمر بأن يخفوا عنها إلى الآن كل ما حدث لأبيها.. فهل تتصورون أن هذا الأب المثالي، هذا الأرمل الذي لم يكف عن

التوجع لموت زوجته الشابة.. هل تتصورون أنه كان يضحى في هذه الجريمة بمستقبل ابنته السعيدة.. ولماذا.. ليتزوج بامرأة لا تحمل له إلا خالص الصداقة، ولم تكن له إلا أختا، والتي لم تكن لتعاشره كزوجة إلا وهي تعرض حياتها للخطر.."

ثم انتقل المحامي إلى نقطة أخرى فقال:

"إن أرمان في حالة مالية سيئة فقد ضحى بكل ما يملك لأخويه المفلسين، واضطر أن يرهن حلي زوجته الراحلة ليعيش.. فمن أين له مبلغ الخمسة عشر ألف فرنكا التي صرفها ليون..

"وفي سنة ١٨٨٢ بدأت الحياة تبتسم له، وكان على وشك أن تسند إليه وظيفة كبرى كمدير لمشروع ضخم لتصدير الفحم في مدينة لييج.. أفلم يكن يجد إلا هذه اللحظة ليجازف بحياته وبشرفه، وليمرغ باسمه الفخور في الوحل"

وأكثر من مرة في أثناء المرافعة، كانت جماهير النظارة تقاطع المحامي الكبير بصيحات الاستهجان فكان يقطع مرافعته ويتجه إليهم صائحاً:

"زمجروا ما شئتم، واهتفوا بسقوطي ما شئتم يا أيتها الحزمة من الأغبياء الجهلة.. من تظنونه يعبأ بكم؟.. من الذي أقامكم هنا قضاه.."

ثم يمضي في مرافعته متعقبا أدلة الاتهام واحدا بعد الآخر غير عابئ بهذه الصيحات التي لم تكن تزيده إلا حرارة وتشبثا في تهشيم الاتهام وفي طلب البراءة.

وبعد أن انتهى تلاه الأستاذ أوجين روبير المحامي عن ليون، وكان قد اشتهر بمقدرة خطابية ناضجة، وبالبديهة الحاضرة المشتعلة، ولم تكن طريقته أن يبكي الناس، ولكن كانت أن يضحكهم بسخريته اللاذعة.. وقام بعده الأستاذ حول لوجون المحامي الممتاز اللامع الذكاء، والذي أصبح فيما بعد وزيرا للعدل، فمزق تقارير الخبراء تمزيقا، ثم تلاه الأستاذ فان كالستر عضو نقابة المحامين، ونقتطف هنا جزءا من مرافعته اكتفاءً به إذا قال:

"إذا كانت شركة الملاحة الدولية ليست إلا تلفيقا لستر الجريمة، فلماذا كان ليون بلتزار يرهق نفسه هذا الإرهاق في استشارة عدة محامين دوليين في بريمن وهامبرج وأمستردام؟.. إن من السخافة أن نصدق أنه يلجأ إلى هذه الرحلة المعقدة ذات المصاريف الباهظة لارتكاب جريمة تصدرها النيابة على أنها مستعجلة

"لقد سمعتم شهود النيابة يقولون أن ليون المتنكر باسم فوجان في باريس في حالة نفسية ضاحكة، وقدم لطفل مدير الفندق هدية، وثبت أنه كان ظاهر الهدوء والمرح في فندق بريتانيا حيث أمر للنزلاء بزجاجة من الشمبانيا قبل حدوث الجريمة بيوم واحد.. أفيقال أن يكون هذا سلوك القاتل في ليلة الجريمة؟..

"لقد أراد ليون بكل بساطة أن يستشير برني في موضوع الشركة، فلما قابله هذا ميزه من تحت تنكره فأهانه وهدده. فقد ليون وعيه وأخرج مسدسه في نفس اللحظة وأطلق الرصاص.. إذا كانت الجريمة مدبرة ومبيته، فكيف تفسرون هذه الحقيقة، أن ليون قبل وقوع الجريمة بساعة أو اثنتين أخبر صاحب المنزل والجيران أنه ينتظر زيارة أحد المحامين من أنتويرب.."

وبعد انتهاء هؤلاء المحامين الأربعة من مرافعاتهم، قام الأفوكاتو العمومي فسمى مرافعتهم (مرافعة في أربعة فصول) ووجه اللوم إلى المحامين الذين خلقوا من مجرمين أبطالا وشهداء واتهمهم بأنهم لطخوا اسم القتيل بالوحل لينقذوا قتلته من العقاب. ثم أخذ يرد على النقاط المهمة التي قام عليها الدفاع بما لا نرى حاجة لترديده. وجاء بعده دور المحامين فاختتموا المرافعات بالرد على رد النيابة.

***

انتهت المرافعات في الساعة الرابعة مساء، وكانت الجماهير مزدحمة في الداخل وفي الخارج في انتظار الحكم ازدحاما دعا البوليس إلى حشد قوات كبيرة جدا للمحافظة على النظام وللمحافظة على حياة المتهمين في حالة إصدار الحكم بالبراءة، وبعد انتهاء المداولة خرج المحلفون فأعلن كبيرهم قرارهم بإدانة الأخوين معا، وإتماما للإجراءات سئل ليون عما إذا كان لديه ما يقوله اعتراضا على القرار فوقف وقال بصوت مرتعش:-

– إني أعترف بأني مذنب، ولكن أخي بريء، وفي إدانته أخطأت العدالة خطأ أحتج عليه:

وهنا غضب رئيس الجلسة واعتبر هذا الكلام إهانة للمحلفين وقال أنه لو لم يكن آسفا على مصير المتهم لجعله يدفع ثمن هذه الإهانة

وسئل ارمان بلتزار بدوره فوقف، ومد يده بقفازها نحو المحلفين وقال:–

– فلتنزل عليكم لعنة ابنتي..

وثار الرئيس مرة أخرى، ثم طلبت النيابة إصدار الحكم بالإعدام على المتهمين، وتداولت المحكمة لحظات ثم صدر الحكم بالإعدام، وارتفع التصفيق من الجماهير الحاشدة واستمر طويلا ،وصدر بعد ذلك مرسوم باستبدال السجن المؤبد بالإعدام.

***

بهذا نزل الستار على الفصل الأخير من هذه المأساة الغامضة، ولكن لقد حدث بعد هذا، ووراء الستار، أشياء أخرى تستوقف التفكير وتستلفت النظر.. من هذه الأشياء أنه لا بد لنا من وضع هذا السؤال. هل كان الحكم مصيبا فيما يختص بأرمان أو غير مصيب؟.. وقد قدمنا أن اهتمام الرأي العام بهذه القضية لم يقتصر على شهود التحقيق ولا على أسابيع المحاكمة، بل استمر بعد ذلك شهورا طويلة بل سنين

وبعد يومين أو ثلاثة من صدور الحكم، مات فجأة أحد المحلفين الذين استنزل أرمان بلتزار عليهم لعنة ابنته، وجرى بين الناس هذا الخبر كما تجري أية خرافة، فقالوا أن اللعنة حاقت بالمحلفين. وانتهز الأستاذ إدمون بيكار هذه الفرصة السانحة فأصدر كتابا مفجعا ضم هذه القصة بعد تغير في الظروف والأسماء وأسماه (المحلفون)

وقد عامل رجال السجن السجينين معاملة ممتازة باعتبارهما من الطبقة العليا. ومرض الأخ الأكبر مرضا نقل على أثره من الزنزانة إلى غرفة فسيحة تتوافر له فيها الراحة، وسمح له بارتداء ملابسه الخاصة.

ولما علم الأخ الأصغر بهذا المرض، كتب إلى الملك ليوبولد كتابا مؤثرا جاء فيه:–

"مولاي.. أجين أخي وهو برئ، ولم أكف عن التصريح بأن أخي إنما يكفر عن تضحية قدمها لي بنبل وكرم، وإنه الآن ليموت مسحوقا تحت هذا المصير الفظيع الذي سيق إليه في وقت كان محوطا فيه بعواطف الجميع وتقديرهم، وليس ينجي حياته من الموت إلا العفو والإفراج عنه

فلترحمه يا مولاي، لقد وسعه كرمك فأبدلت بالإعدام السجن. فانقذه من الموت المحتم الذي هو شر من الإعدام.. إنك يا مولاي سترده إلى الحياة، إلى أمه، إلى ابنته، إلى أصدقائه، وستنقذني في الوقت نفسه من الحزن الذي سوف يمتص حياتي إذا تركتني أحتمل وخز الضمير وأنا أتحمل

مسئولية موت أخي التعس الذي كان نبيلا وكريما معي ومع كل أفراد أسرته، فوق الندم الذي يخيم على حياتي بعد أن أزهقت روحا بشرية"

وظل هذا الخطاب بلا جواب، واشتد المرض على أرمان، ثم عاجلته منيته ومات في السجن بعد الحكم بسنتين وأربعة أشهر، وبعثت هذه الوفاة في أذهان الناس ذكرى المأساة

طلب ليون بلتزار بعد هذا أن يسمح له بإثبات براءة أخيه، ولكن هذا الطلب رفض، وعندئذ توفر جيمسي بلتزار الأخ الثالث على تأليف مجلد ضخم لم يلبث أن أصدره، يحمل فيه على المحاكمة ويوضح براءة الأخ ويسمي المحاكمة (جور العدالة) وكان هذا الكتاب من العوامل التي بعثت ذكرى المأساة إذ عادت المناقشات حامية الوطيس حول براءة أو عدم براءة أرمان بلتزار

وبعد أن خمدت هذه الفورة عادوا إلى الالتهاب مرة أخرى على أثر ما سمع الناس عن زوج مدام برني زوجة القتيل بالأستاذ فردريك دلفو المحامي المشهور، وكان شيخا وأرمل ماتت زوجته وتركت له طفلين، وكان إقدامه على الزواج بهذه السيدة دليلا على إيمانه العميق بطهارتها.

***

نعود بعد ذلك إلى حياة ليون في السجن لنقول أنها ربما تكون أغرب حياة لسجين في تاريخ السجون في العالم كله، ظل هذا الرجل في السجن

ثلاثين عاما أفرج عنه بعدها. والمدهش أنه رفض أن يخرج من زنزانته طوال هذه المدة ولو للرياضة في فناء السجن إذ أبت عليه كبرياؤه أن يختلط بالسجناء أصحاب الجرائم الحقيرة، وكان يقضي وقته في اصطياد العنكبوت والتحدث إليه حتى لا ينسى الكلام، وقل زواره في السجن بعد أن رحلت أمه من بلجيكا مع حفيدتها وبعد أن مات أخوه جيمس، ولعل ما حجزه عن الانتحار هو أنه وهب نفسه للمطالعة والدراسة اللتين أعانتاه على التجلد.

وأضافت وفاة أرمان إليه أثقال الحزن ووطن نفسه على أن يمتنع عن الطعام والشراب. ولكنه عدل عن هذه الفكرة بأمل أن أمرا بالعفو قد يصدر عنه. وفي نهاية العشرة سنوات الأولى لسجنه تولى وزارة العدل الأستاذ جول لوجون محامي هيئة الدفاع. هذا المحامي العظيم ذو القلب الكبير، والذي كان واحدا من القلائل اللذين ظلوا مثابرين على زيارة ليون في السجن، وكان قد بدأ يحس بالعطف والاحترام لهذا السجين، وكان يؤمل أن يطلقه من سجنه، ولذلك قدم إلى البرلمان البلجيكي قانون الإفراج الشرطي الذي كان ينوي أن يجعل ليون أول من يستفيد منه. وفي إحدى محادثاته معه قال له:–

– إن أبواب بيتي ستكون دائما مفتوحة لك. وستكون زوجتي سعيدة باستقبالك.

وهكذا استطاع هذا الأسير أن يرى من ظلامه الحالك بصيصا من النور، ولكن عجلة السياسة الطاحنة لم تلبث أن دارت دورتها وأقصيت عن الحكم الوزارة التي كان محاميه وزيرا فيها، ولكن هذا المحامي العظيم والوزير

النبيل لم ييأس، بل تكاتف مع زملائه أعضاء هيئة الدفاع وبعض أصحاب النفوذ، وظلوا يكافحون من أجل هذا السجين، وكم من مرة اعتقدوا أنهم نجحوا في مسعاهم، ولكن لا تلبث العقبات أن تقوم دون الغاية

ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى نبالة أولئك المحامين اللذين لم تنقطع علاقتهم بمهمتهم وبقضيته طوال الثلاثين من الأعوام التي أمضاها في السجن، بل ظلوا يزورونه في سجنه ويدافعون عن قضيته حتى نجحوا أخيرا في استصدار قرار بالعفو عنه

في محيط هذا اليأس الشامل والألم القاتل اللذين كان السجين التعس يتنفس فيهما، عرض عليه رجال السجن في بعض المرات أن يعترف على أخيه ويكون هذا الاعتراف ثمنا للعفو عنه، ولكنه كان يرفض بشدة قائلا أنه قرر الحقيقة ولا يعترف بغير الحقيقة، ولا يسئ إلى ذكرى أخيه مهما كان الثمن

أما شخصيته فقد بدلت منها سنوات الأسى تبديلا عجيبا، فإن ذلك الأفاق المفلس الذي انتهى إلى أن أصبح قاتلا، خرج من السجن مثالا للإنسان الكامل، إذ أكسبه توفره على المطالعة ثلاثين عاما علما واسعا خلق منه رجلا مثقفا على أتم ما يكون الإنسان ثقافة، فضلا عن أن الحدة الدائمة هذبت من خلقه ورققت من طباعه وعواطفه وجعلته إنسانا فوق الإنسانية حتى أنه عاش بعد الإفراج اثنى عشر عاما رجلا ذا كبرياء عجيب، يأبى معونة أحد مهما كان صديقا، ولا يعتمد على أن يعيش إلا من عمله ومن إعانة صغيرة

كانت تزوده بها شقيقة له، وكان يحسن بكل ما عنده إلى البؤساء والضعفاء، وعندما غلبت الشيخوخة فتوته وأصبح عاجزا عن العمل أصر على أن ينتحر فقذف بنفسه في النهر..

وتتصل بحادث انتحاره هذا ظاهرة من أغرب ظواهر القضاء والقدر، وذلك أن جثته ظلت تقاذفها الأمواج حتى ألقت بها إلى الشاطئ وعثر عليها بعض الناس، وهنا واقعة مما لا يكاد يصدقه العقل

ويهمنا أولا أن نعود خطوات إلى الوراء، فقدكان من بين ما عرض في المحاكمة سجاد ملوث بالدم هو الذي وقع عليه القتيل وكان للسجاد دور مهم في التحقيق وفي المحاكمة وفي المرافعة.. هذا السجاد نفسه ظل بعد المحاكمة يتداول من يد إلى يد مدى أربعين عاما حتى وقع في يد أحد الفلاحين، وهذا الفلاح نفسه هو الذي طلب إليه البوليس أن يستحضر من كوخه القريب شيئا لتلف فيه جثة الغريق المنتحر الذي قذفت به الأمواج إلى الشاطئ والذي لم يكن سوى ليون بلتزار...!

ذهب هذا الفلاح إلى الكوخ وعاد يحمل هذا السجاد التاريخي الذي سقط فوقه القتيل وتلوث بدمه، وبهذا السجاد لفت جثة القاتل المنتحر بعد اثنتين وأربعين سنة من الجريمة!!! فبماذا تفسر هذه الظاهرة الخارقة!

بماذا تفسر هذا السجاد.. العنصر الأهم من عناصر الاتهام. قطعة الأثاث الملوثة بدم القتيل.. بماذا تفسر أنها ظلت تتبع القاتل عبرت إليه الزمان والمكان حتى أدركته أخيرا في موته فغطت جثته. هل هناك قوانين

خفية تسيطر على الطبيعة الإنسانية، وتتحكم في مصائر هذه البشرية.. أليس هناك ما يحملنا على التفكير في ذلك إذا تأملنا في اليد الجبارة التي تتحكم في المصائر فتظل تتعقب القاتل من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان حتى إذا أخذ يفر من الحياة، من مسرح جريمته، امتدت هذه اليد فجرته من قفاه لتحبسه في جريمته حتى بعد اثنين وأربعين سنة من التفكير الأليم.. أم أنه ليس في الأمر رموز ولا إشارات ولا يد خفية ولا غير هذا وذاك، وإنما وقع ذلك بمحض المصادفة.. أم أنه إذا كان لهذه الحادثة من مغزى، فأنها تعني العفو الأخير الممنوح من السماء للقاتل المنتحر إذ ساقت إليه السجاد لتدفئ جسده المقرور من برد النهر بعد أن أدى دينه إلى المجتمع مكفرا عن جريمته ثلاثين عاما بالسجن وأكثر من عشرة أعوام بعد السجن في حياة الشقاء..

إننا نميل إلى أن نقول تفسيرا لهذا السبب والنتيجة لا ينفصلان فمهما اتخذ المجرم من التحوطات ليفصل نفسه حسيا ومعنويا عن العمل الآثم الذي قارنه، فإن هذا العمل سوف يعود إليه ويجره جرا إلى الماضي الذي جد في الفرار منه.

محاكمة هربرت بنيت

اهتم الرأي العام في إنجلترا بهذه القضية عند وقوعها، وزاد من أهميتها أن التحقيق فيها فشل في أول الأمر فشلا انتهى باعتبارها قضية قتل امرأة مجهولة بيد شخص مجهول، ولكن كبير المفتشين في بوليس سكتلانديارد تولى أمرها بنفسه بعد ذلك، فكشف عن شخصية المرأة القتيلة ثم عن شخصية القاتل ببراعة تستدعي الإعجاب. كما زاد من أهميتها أنه كان على رأس هيئة الدفاع عن المتهم المحامي المشهور السير مارشال هول، وهو المحامي الذي يذكر كثيرون من القراء أنه ترافع في قضية مقتل المرحوم علي بك فهمي عن القاتلة مرجريت فهمي وحكم ببراءتها. ولما كانت وقائع القضية وشهادة الشهود وإجراءات التحقيق تتركز كلها في المرافعة الافتتاحية للنيابة. فإننا نستغني عن كل ذلك بإيراد هذه المرافعة.

***

قال المستر جيل ممثل النيابة:-

"في صباح ٢٣ سبتمبر من العام الماضي (١٩٠٠) وجدت على الشاطئ الشمالي لضاحية بارموث جثة امرأة مقتولة. كانت المرأة مسطوحة على ظهرها فوق مسقط تل منحدر، وكانت ذراعاها ممدودتين إلى جانبيها

وأصابعها منقبضة، وفي وجهها عدد من الجروح والرضوض ومعقود حول رقبتها رباط حذاء.

وكان المفتاح الوحيد لمعرفة شخصيتها هو الرقم ٥٩٩ المثبت في ملابسها الداخلية وهو العلامة التي تميز الملابس عند الغسالين والكوائين. وكان محيط رقبتها حوالي عشر بوصات، بينما كان طول الرباط لا يزيد على ثماني بوصات ونصف البوصة. ووضح من الكشف الطبي أن الموت وقع نتيجة الاختناق.. وظهر أنها كانت تقيم منذ ١٥ سبتمبر في بيت عائلة تسمى (روروم). وقد ذهبت إليهم ومعها طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات. واستأجرت غرفة وظلت تسكنها حتى ٢٢ سبتمبر. وكان الطفل صغيرا جدا بحيث لم يكن في الإمكان أخذ معلومات منه، ولم يوجد شيء آخر يمكن أن يستدل منه على شخصية المرأة. وقد عرفت في بارموث باسم هو (هود) حيث أنه كان قد وصلها في مساء ٢١ سبتمبر خطاب معنون بهذا الاسم وعليه طابع ضاحية وولويتش. وكانت المرأة تلبس أثناء إقامتها في بارموث سلسلة ذهبية طويلة وساعة فضية. وكانت تلبسها في يوم ٢٢ سبتمبر في آخر مرة شوهدت فيها على قيد الحياة عندما خرجت من المنزل بين الساعة الثامنة والتاسعة. وهذه السلسلة والساعة لم توجدا مع الجثة، ولم يعثر لهما على أثر. وكذلك لم توجد الحقيبة الصغيرة التي خرجت بها.

فتح التحقيق ثم أجل إلى ٢٩ أكتوبر حيث بدأ فاشلا من أول الأمر لعدم التعرف على شخصية القتيلة.

في يوم الثلاثاء السابق على الجريمة، كانت المرأة قد صورت نفسها على الشاطئ مع طفلها صورة فوتوغرافية. ووجد البوليس هذه الصورة في غرفتها، ولم تكن ترد إليها خطابات، والتحريات الواسعة التي أجريت عن امرأة مفقودة باسم هود لم تأت بنتيجة. وفي آخر أكتوبر قرر المحققون اعتبار الحادث قتل امرأة مجهولة بيد شخص مجهول.

وكان من بين مسائل القضية هذا السؤال: هل تمت الجريمة بتدبير سابق؟ أم وقعت فجأة؟ وهل قتلت هذه المرأة بيد رجل قادها إلى مكان لا تعرف فيه شخصيتها؟

ثم اتضح من التحريات التي أجراها البوليس في وولويتش أن الرقم ٥٩٩ يستعمل لتمييز ملابس ترد إلى الكواء من المنزل رقم ١ في بكسلي هيث. وظهر أن امرأة تدعى "مسز بنيت" كانت تقطن هذا المنزل مع طفل صغير، وكان يتردد عليها رجل اسمه بنيت أيام كانت تعيش هناك واستطاع المستر ليتش كبير المفتشين في قلم التحقيق الجنائي أن يتصل برجل اسمه (ألن) الذي أدلى بمعلومات عن المرأة وعن المتهم. ونتج من هذا أن المرأة التي كانت تقطن هذا المنزل وتعرف باسم "مسز بنيت" هي نفس المرأة التي أخذت لها صورة فوتوغرافية على الشاطئ وهي الصورة التي وجدت بمنزل آل ردرم في بارموث.

وفي مساء ٦ نوفمبر قابل (ألن) المتهم في وولويتش وقدم إليه المفتش ليتشر الذي طوقه بذراعيه بمعاونة ضابط آخر، وقال له: إنني ضابط بوليس،

وأقبض عليك بتهمة قتل امرأة اسمها هود على بلاج بارموث في ليلة ٢٢ سبتمبر أو في صباح ٢٣ سبتمبر".

وكانت إجابة المتهم على هذا أن تساءل قائلا: "ماذا تعنى؟ لماذا كل هذا؟"

وعندئذ أعاد المفتش على مسمعه نفس الكلام، فقال المتهم لا أفهم ماذا تعني.. إنني لم أذهب أبدا إلى بارموث، ولم أعش مع زوجتي مطلقا منذ شهر يناير بعدما ضبطت عندها خطابات مرسلة إليها من آخر. وعثر البوليس في جيبه على مفاتيح، وفي غرفة في المنزل رقم ١٨ شارع ويليم وولويتش عثروا على سلسلة ذهبية وساعة فضية نسائية. هذه السلسلة والساعة هما ما تقرر النيابة أن القتيل كانت تلبسهما في ليلة مقتلها. وقد ميز المستر وليام كلارك والد القتيل صورتها الفوتوغرافية

نعود إلى منشأ العلاقة بين القتيلة والمتهم.. كانت القتيل تعطي دروسا في البيانو والكمان، وكان المتهم يتلقى عليها بعض الدروس. ومن هنا بدأت علاقتهما. وتزوجا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٩٧ وعاشا في بيت جدتها التي توفيت في السنة التالية والتي كانت معتادة على أن تلبس سلسلة ذهبية طويلة وعدت بأن تكون لحفيدتها بعد وفاتها. وعند وفاتها نفذ والد القتيلة وصية الجدة، وهذه هي السلسلة التي وجدت في حيازة المتهم، والتي تثبت أن القتيل كانت تلبسها في ليلة ٢٢ سبتمبر يوم مقتلها.

واستعرضت النيابة بعد ذلك فترة من تاريخ الحياة الزوجية بينهما حيث كانا يتعيشان بوسائل غير شريفة. وسافرا إلى إفريقيا وعادا منها واستأجر غرفة في منزل "مسز أليستون" التي تشهد بقسوة المتهم في معاملة زوجته.

وتشهد "مسز أليستون" بأنها سمعت القتيل يوما تقول للمتهم: (هربرت.. سأتبعك حيث تذهب من أجل الطفل. فإذا لم تتعقل فأني مستطيعة أن أرسلك خمسة عشر عاما إلى السجن)، وأجابها المتهم بأنه يتمنى لها الموت. وبأنها إذا لم تتعقل فسوف تموت، وبأنها كانت دائما مصدر إزعاجه.

وتحدث النائب عن نزوحها إلى وولويتش حيث وجد عملا، ثم افترقا في معيشتهما، واستأجر هو سكنا خاصا كأنه غير متزوج، وقطنت هي والطفل في المنزل رقم ١ في "بكسلي هيث" السابق الإشارة إليه والذي يقع على بعد ٤١ ميلا من المنزل الذي يسكنه هو، وكان يزورها من حين لآخر. ثم قال:–

"في شهر أغسطس مرضت المرأة، وأرسلت إلى المتهم برقية كتبت فيها: "اجتهد أن تحضر. أنا مريضة" وقد فسر هو هذه البرقية لصاحبة المنزل قائلا أن ابن عمه الذي يعيش في بكسلي مع زوجته وطفله مريض جدا.

وفي يوم ٢٩ يونيه ترك عمله وظل عاطلا حتى ١٦ يوليه

"وكان يسكن في المنزل الذي يعيش فيه المتهم رجل يدعى ستيفنس له علاقة مع فتاة تعمل طاهية في أحد البيوت. ظن ستيفنس أن المتهم أعزب

فعرفه بفتاة تدعى أليس ميدوز تشتغل في نفس البيت، ورؤي يكتب إليها ويخرج معها. وفي خلال شهر يوليو وفق في الحصول على عمل في ترسانة وولويتش بثلاثين شلنا في الأسبوع.. وفي أواخر يوليو عزم هو وصديقته ميدوز على قضاء بضعة أيام في إيرلنت. ولكنهما عادا فقررا الذهاب إلى مصيف يارموث حيث أن الطاهية صديقة ستيفين كانت هناك وتعرف بيتا أو بيتين يمكن استئجار غرف فيهما. أحد هذين البيتين هو بيت ردرم، وهو الذي سكنت فيه القتيل أخيرا. وفي ٣٠ يوليو أرسل المتهم خطابا إلى مسز ردرم، يطلب حجز غرفتين لعطلة آخر الأسبوع. فردت عليه مسز ردرم معتذرة لعدم إمكانها ذلك.

الخطاب المرسل من المتهم إلى مسز ردرم له أهمية خطيرة نظرا إلى وحدة الخط بينه وبين الخطاب الذي تسلمته القتيل في ٢١ سبتمبر، وبالرغم من أنه لم يستطع استئجار هاتين الغرفتين فإنه ذهب هو وفتاته إلى يارموث، ونزلا في فندق التاج والهلب. واستأجرا غرفتين منفصلتين وقام على خدمتهما خادم اسمه ريد. وأهمية هذا هي في إثبات أن المتهم لم يكن فقط يعرف عنوان بيت ردرم، بل أيضا فندق التاج والهلب.. أي أنه كانت عنده فرصة معرفة مصيف يارموث كله.

"ثم عاد هو والآنسة ميدورز إلى وولويتش. وفي نهاية شهر أغسطس صحبها إلى أيرلندة لمدة أسبوعين ثم عادا في ١١ سبتمبر وهنا كان قد طلب يدها، وأهداها خاتم الخطبة وقرر الزواج في شهر يونيه من السنة التالية،

وقدمها إلى مسز بانكهرست صاحبة المنزل الذي يسكنه على أنها زوجته العتيدة.

في هذا الوقت كان مركز المتهم قد أصبح حرجا إذ كانت أمامه زوجة، وهو في نفس الوقت يرتب زواجه بهذه الفتاة.

في ١٤ سبتمبر زار زوجته وطفله حيث كانا يقيمان في "بكسلس هيث". ولم يكن يزورهما إلا نادرا جدا إذ كان يقضي أوقات فراغه كلها مع خطيبته. وبعد هذه الزيارة علم جيران القتيل أنها تستعد للرحيل.

وفي ١٥ سبتمبر زارها أيضا ثم انصرف، وفي هذا اليوم حزمت حقيبتها الصغيرة وأغلقت المنزل ورحلت. وكانت هذه أخر مرة رآها فيها جيرانها.

سافرت القتيل إلى يارموث في هذا اليوم، وذهبت توا إلى منزل مسز ردرم، والراجح أن شخصا ما يعرف هذا العنوان هو الذي اقتادها إليه، ولكن أحدا لم يشاهد معها.

وسوف تسمعون شاهدا يقرر أن المتهم – في نفس هذه الليلة – جاء إلى فندق التاج والهلب ومعه حقيبة صغيرة حيث نام الليل وبارحه في الصباح.

وفي يوم ١٩ سبتمبر ذهب إلى حيث كانت تقطن زوجته قبل رحيلها، ولم يدخل المنزل ولكنه استعلم عما إذا كان أحد قد سأل عنه هناك.

وفي ٢٠ سبتمبر اعتذر إلى خطيبته من عدم إمكانه قضاء يوم الأحد التالي معها نظرا إلى اضطراره إلى زيارة جده المريض.

وفي ٢١ سبتمبر كتب إليها خطابا آخر. و٢١ سبتمبر هو نفس اليوم الذي تسلمت فيه القتيل الخطاب الذي يحمل ختم بريد وولويتش.

وفي ٢٢ سبتمبر في الساعة الثالثة بعد الظهر، رحل المتهم من وولويتش، وتشهد صاحبة المنزل بذلك، وفي نفس المساء بعد أن تركت القتيل ابنها في حراسة خرجت بغرض مقابلة شخص ما. وشوهدت في الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة مساءا واقفة في التيدن هول كأنها تنتظر شخصا ما. وقد رأتها هناك وتحدثت إليها مسز ردرم صاحبة منزلها وكذلك يشهد المستر بوركنج الذي يملك مقهى عاما أن المتهم وزوجته القتيل دخلا إلى محله في الساعة العاشرة مساء. وقد لحظ أن من عادة المتهم أن يعبث بشاربه.

وتشهد امرأة تدعى جيسون كانت في المحل أيضا بأنها ميزت المرأة والمتهم.

وستجيء بعد ذلك شهادة رجل اسمه ماسون وفتاة اسمها بلانش سميث اللذين كانا حوالي الساعة الحادية عشرة موجودين في مكان من الشاطئ بعيد عن الطريق العام يؤمه في العادة كل فتى وفتاة يريدان الاحتجاب عن الأنظار.

كان هذا الفتى وهذه الفتاة يجلسان هناك في مكان لا يراهما فيه أحد. وبعد دقائق من حضورهما سمعا وقع أقدام لاثنين آخرين على بعد حوالي ثلاثين ياردة منهما وسمعاهما يتكلمان بصوت مرتفع.

"كانت القتيلة ضعيفة السمع إلى حد الصم تقريبا. ويقول الشاهد أن الرجل والمرأة جلسا أو رقدا على الأرض وبعد فترة قصيرة سمعت الفتاة أولا صوت امرأة تتوسل قائلة: الرحمة.. الرحمة. وبعد ذلك سمعا شبه صراخ وأصواتا تشبه الأنين، ثم سكت كل صوت. ومن الراجح أن المجني عليها قتلت في هذه الساعة.

"ولم يفعل الفتى والفتاة شيئا. وكان الظلام حالكا فلم يميزا شخصيتي المرأة والرجل، ولكن ما سمعاه هو نفس ما حدث

"بعد ذلك وصل المتهم إلى فندق التاج والهلب قبل منتصف الليل بقليل. وقال للخادم أنه إنما يلهث لأنه لم يدرك الترام الأخير. وقال أيضا أنه يود اللحاق بأول قطار يقوم إلى لندن في الصباح.

"انتقل المتهم بعد ذلك إلى مهمة أخرى. وهي التخلص من إيجار البيت الذي كانت تقطنه زوجته وطفله في وولويتش قبل انتقالهما إلى يارموث. فذهب إلى هناك في ٢٦ سبتمبر وقابل أصحابه وأعلنهم بأنه سيخليه. وفي نفس اليوم ذهب إلى خطيبته فأنبأها بأن ابن عمه سافر هو وزوجته إلى جنوب إفريقيا وأنه اشترى منهما أثاث منزلهما وأنه يود الزواج بها في عيد الميلاد.

"وفي ٢٨ سبتمبر كتب إلى صاحب المنزل المذكور خطابا أرفق به أجرة ثلاثة شهور في مقابل فسخ العقد

"وفي ٤ أكتوبر ذهب إلى هناك وأخذ من المنزل حقيبة كانت قد تركتها هناك، وقال لبعض الجيران أنها في يوركشير بسبب اعتلال صحتها وأنه سيرسل الحقيبة إليها. وأخذ معه كذلك أشياء أخرى منها ملابس أعطاها لخطيبته على أنها ضمن ما اشتراه من ابن عمه. وكذلك أراد بيع البيانو. واتصل بصديقه ألن الذي كان فيما بعد سبب القبض عليه والذي كان يعرف أنه متزوج.

"وفي ١٧ أكتوبر هجرت أليس ميدوز – الخطيبة – عملها واستأجر مسكن الزوجية

"وفي ٦ نوفمبر قبض البوليس على المتهم. وبتفتيش مسكنه وجدت عدة أشياء، منها خطابات كثيرة من أليس ميدوز وعدد من الملابس والأشياء التي كانت عند زوجته.

"وفي التحقيق أطلعوه على صورة زوجته فقال أنه لا يستطيع تمييزها بوضوح، وسأل إن كانت صاحبة الصورة شقراء أم سمراء، وقد أنكر لأول مرة أنه كان في يارموث. وقال إن مسز بانكهرست ورجلين آخرين يستطيعون أن يثبتوا أين كان في ليلة الحادث. وبسؤال هؤلاء الأشخاص قالوا أنهم لم يكونوا بصحبة المتهم في تلك الليلة.

"وأخيرا لست أريد أن أعلق على القضية عند حدها هذا، ولكني سأستدعي الشهود ليثبتوا الوقائع كما سردتها أمامكم..

هكذا افتتحت النيابة مرافعتها وهي مرافعة كل قوتها في بساطتها، وكل إعجازها في تسلسل الإيضاح وترتيب الخطوات. وقد سمعت المحكمة والمحلفون شهادة الإثبات. وقد شهدوا جميعا بكل ما قررته النيابة في مرافعتها. وحاولت هيئة الدفاع بقيادة الأستاذ مارشال هول الاستفادة بأقصى مقدرة من مناقشة هؤلاء الشهود عسى أن يلقفوا من أفواههم شيئا لصالح المتهم.

***

لو صحت الوقائع على الشكل الذي قدمته النيابة فهل بقي للمحامين عن المتهم ما يقال في طلب البراءة؟ وإذا استطاعت براعتهم الفائقة أن تجد ما يقال، فهل كانوا يعتقدون حقا ببراءة المتهم.

الجواب على الشطر الأول من السؤال سنعرفه من مرافعة السير مارشال هول، أما الشطر الثاني فنجد الإجابة عنه في كتاب (حياة السير مارشال هول) الذي صدر بعد وفاته إذ جاء في هذا الكتاب عن هذه القضية أن المحامي الكبير كان يؤمن دائما أن هربرت بنيت – المتهم – برئ من هذه الجريمة وهو ولو أنه يعتقد أن هذا المتهم كذاب وسافل ومجرم بالطبع، إلا أنه مع هذا لم يقتل زوجته. وقال في رسالة له (إن من خير المجتمع أن مجرما بالفطرة مثل بنيت يجب أن يشنق. وليس يدهشني أن أسمع أنه ارتكب

ست جرائم قتل لم تكتشف، ولكني واثق أنه لم يقتل زوجته على بلاج يارموث في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠

وقال في هذا الخطاب أيضا: (لست الرجل الذي يهتم بشيء لا ضرورة له، خصوصا بحياة شخص مثل هذا، ولكني بكل إخلاص لا أعتقد ولا أستطيع أن أعتقد أنه قتل زوجته. ورأيي الخاص في هذه القضية أنه ذهب فعلا إلى يارموث، وأنه كتب فعلا هذا الخطاب وأنه خرج مع زوجته وشرب معها، ولكنه بعد ذلك أوصلها إلى قرب مسكنها في الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة إلا ربعا وتركها هناك، ثم قابلها شخص أفاق فاستهواه شعرها الذهبي وسلسلتها الذهبية فاصطحابها إلى الشاطئ لأغراض خسيسة، وهناك قاومته فقتلها)

هذا هو الرأي الذي يعتقده محامي المتهم، ومع ذلك فسنرى فيما يلي المجهود الذي بذله هذا المحامي ليؤيد رأيه وليجعل المحلفين يشاركونه هذا الرأي، حاول الأستاذ مارشال هول أن يدحض قرينة ضبط السلسلة الذهبية والساعة الفضية عند المتهم بأن أسمع المحكمة شهودا قالوا إن المجني عليها كانت عندها سلسلتان ذهبيتان متشابهتان وساعتان فضيتان متشابهتان كذلك. وأخذ يستنتج من ذلك أنه ولو أن البوليس ضبط عنده السلسلة والساعة إلا أنهما ليستا القطعتين اللتين كانت القتيل تلبسهما ليلة مقتلها

وفي سبيل إثبات هذه النقطة أيضا استمسك برأي الخبراء اللذين قالوا أن تكبير الصورة الفوتوغرافية التي وجدت في مسكن المجني عليها أثبت أن

السلسلة الذهبية التي كانت تلبسها في هذه الصورة هي غير السلسلة التي وجدت في حيازة المتهم، وهذا يؤكد أنه كانت عندها سلسلتان. فمن الجائز إذن أن المتهم كان قد استولى منها على أحداهما وأن القاتل الذي هو غير المتهم قد انتزعها من رقبتها بعد ارتكاب الجريمة.

وتعلق الدفاع تعلقا شديدا بنقطة مهمة أخرى، فقد حدث بعد وقوع الجريمة بأربعة أيام أن تقدم إلى البوليس رجل اسمه المستر أودريسكول وهو صاحب مكتب لمراهنات السباق يقول أن رجلا بادي التهيج جاء إلى مكتبه وابتاع جريدة فيها أنباء عن هذه الجريمة وكان يقرأها بحالة انفعال شديد. وكانت إحدى فردتي حذائه من غير رباط ويطل لسانها منها. وأعطى له أوصافا ظهر أنها غير أوصاف "هربرت بنيت".

لهذه الشهادة أهمية كبرى كما يرى القارئ، فلو اقتنع المحلفون بها لكانت ذات شأن في براءة المتهم لأنها تثبت أن شخصا غير المتهم جاء إلى مكتبه في حالة تهيج يسأل عن جريدة فيها تفصيلات عن الجريمة ويقرؤها بانفعال وليس في إحدى فردتي حذائه رباط، وهذا معناه أن القاتل شخص آخر غير المتهم.

ويحسن أن نورد فيما يلي أقوال هذا الشاهد:-

"في حوالي الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف من مساء ٢٦ سبتمبر جاء إلى مكتبي رجل يلبس معطفا رماديا طويلا. وقد لاحظت أنه بينما إحدى فردتي حذائه محكمة الرباط، كانت الأخرى بغير رباط ويطل لسانها منها.

وكانت على وجهه آثار خدوش مضت عليها أيام، وطلب إحدى صحف لندن أو جريدة محلية فقال أن المهم عنده هو صحيفة فيها تفاصيل الجريمة فأعطيته نسخة من جريدة (ستار) وبينما كان يفتش في جيوبه عن ثمنها لاحظت على يديه آثار جروح، وتناول الصحيفة بسرعة وجعل يقلبها بحثا عن أخبار الجريمة فأشرت له على مكانها فأخذ يقروها باهتمام شديد، وأثناء قراءته كانت تصدر منه أصوات تشبه الزمجرة، وكانت يداه ترتجفان، ولما التفت إلى ورائي أراقبه طوى الصحيفة بسرعة واندفع خارجا".

وقال هذا الشاهد بعد ذلك أنه ذهب إلى البوليس بعد دقائق وأعطى أوصاف الرجل، وروى ما حدث، وبعد أن انتهى من شهادته أطبق السير مارشال هول على نقطة آثار جروح فقام وقال: (هل لي أن ألفت نظر الرئيس إلى أن رجل البوليس الذي اكتشف الجثة شهد بأنه لاحظ وجود آثار تدل على صراع شديد باقي في المكان الذي كانت فيه الجثة؟)، ولكن المستر تشارلس جيل ممثل النيابة الساهر قام بدوره وقال:

- إن شهادة الطبيب أثبتت أنه لم توجد على أظافر القتيلة أو تحت أظافرها علامة تدل على آثار جلد لرجل

ولكن المحامي لم يقبل هزيمة سريعة كهذه فأسرع يطلب الطبيب، وناقشه في رأيه، وانتهى الطبيب بأن قال أنه وجد رمالا على يدي المجني عليها، وأنه من المحتمل أن تكون الرمال قد أزالت من أظافرها آثار الجلد الذي خدشته.

قال الأستاذ هول في مرافعته تعليقا على شهادة هذا الشاهد:-

"هل لديكم أدنى شك في صدق شهادة أودريسكول؟.. لقد ناقشه المستر تشارلس جيل ممثل النيابة الذي يكاد يكون أبرع مناقش للشهود بين رجال النيابة، فلم يستطع أن يهز أساسها بشكل ما، وإنه لمن الواضح أن هذا الشاهد قد أدرك أهمية ما سمع وما رأى بحيث أنه أسرع مباشرة إلى تبليغ البوليس عما حدث في مكتبته".

وقال أيضا تعليقا على نقطة وجود سلسلتين وساعتين عند المجني عليها:-

"بقيت مسألة السلسلة الذهبية والساعة الفضية. وأني لموقن من أن هذا الرجل إذا كان هو القاتل واحتفاظه مع ذلك بالسلسلة والساعة كان خليقا به أن يقاد إلى أول مستشفى للمجاذيب، إذ يحتفظ في حيازته بقطعتين هما شاهدا جريمته. إن السلسلة التي كانت تلبسها المرأة في الصورة الفوتوغرافية هي غير السلسلة التي ضبطت في حيازة المتهم. هل لديكم شك في شهادة المسز كانو التي قالت أن المجني عليها كانت عندها سلسلتان وساعتان وإن إحدى السلسلتين كانت تقليدا للأخرى اشترتها لتلبسها بدل الحقيقة؟.. بل لا تقبلوا غير شهادة أبصاركم؛ فإنكم إذا نظرتم إلى الصورة الفوتوغرافية بأدق منظار تخرجه مصانع إنجلترا، فسوف تقتنعون بأن السلسلة التي تلبسها صاحبة الصورة تخالف السلسلة التي ضبطت عند المتهم."

وقال أيضا عن شهادة المسز كانو، وهو يقدمها إلى المحكمة قبل سماع شهادتها:

"ستقرر المسز كانو التي كان المتهم والمجني عليها يسكنان في بيتها أن المسز كان عندها سلسلتان وساعتان وإن إحدى السلسلتين كانت ذهبا حقيقيا ولما كانت قديمة العهد وسهلة الكسر فإن المجني عليها أخبرت المسز كانو أنها قد اشترت سلسلة أخرى تقليدا للأولى تستطيع أن تلبسها. وستنبئكم الشاهدة أيضا بأنه حدث في إحدى المرات أن الساعة الفضية انكسرت فأرسلتها المجني عليها لإصلاحها وأخذت تستعمل ساعة فضية أخرى. وستنبئكم كذلك أن الطفل اعتاد أن يعبث بالساعتين ويعضهما"

***

وتعلق محامي المتهم أيضا بنقطة لا تقل في أهميتها عن النقطتين السابقتين إذ تقدم شاهد محترم يشهد بأنه في ليلة الجريمة قابله المتهم، ولم يكن يعرفه، في مكان بعيد عن مكان الجريمة وفي ساعة وقوعها ولبث معه وقتا، بحيث يكون من المستحيل – إذا صحت هذه الشهادة – أن يستطيع المتهم ارتكاب الجريمة قبل أو بعد هذه المقابلة. فلنستمع إلى المحامي وهو يقدم هذا الشاهد إلى المحكمة:

"سأستدعي أمامكم الآن المستر شولتود دوجلاس الذي يخبركم عن إحدى المصادفات الخارقة.. هذا السيد خرج يتريض سيرا على قدمه في مساء ٢٢ سبتمبر، فقابله رجل وسأله عود ثقاب ليشعل سيجارته، وعندما

أشعلها أخذ يبادله الحديث، ولم يستطع الشاهد أن يتخلص منه. وهذا الشخص سوف يقرر الشاهد أنه هو المتهم. تحدث المتهم إلى الشاهد فقال أنه يشتغل في ترسانة وولويتش وأنه زار أيرلندة، وعندما وصلا إلى أحد المحلات العمومية وهو مقهى أو حانة تسمى حانة النمر أشار المتهم إلى دكان مواجه لهذه الحانة قائلا: ها هنا شخص يحمل اسمي فوق صالون الحلاقة؛ فنظر المستر دوجلاس إلى عنوان الدكان فوجده مكتوبا عليه اسم بنيت، ومن هنا عرف الشاهد اسم المتهم. سيخبركم المستر دوجلاس أيضا، أنه كانت هناك سيارة عامة تقف خارج الحانة، ومنها عرف الوقت الذي كان المتهم يحادثه فيه إذ أن السائق سأل قراض التذاكر عن الساعة فأنبأه هذا بأنها السابعة. وسينبئكم المستر دوجلاس أيضا كيف عرف أن مقابلته للمتهم كانت في يوم ٢٢ سبتمبر إذ أنه في ذلك اليوم عقد صفقات مع مزرعة كان قد أوقف التعامل معها منذ سنين، وهذا ما ثبت التاريخ في ذاكرته.. ثم كانت تهويلات الصحف عن الحادث مما لفت انتباه المستر دوجلاس. فأولا اسم بنيت، ثم التاريخ ثم ترسانة وولويتش، ثم زيارة أيرلندة.. ليس من المعقول أن تكون هذه الأشياء كلها محض مصادفة وليس معقولا أن يكون هناك رجلان اسمهما بنيت يشتغلان في ترسانة وولويتش وزارا أيرلندة. لهذا رأى المستر دوجلاس أن من واجبه أن يتصل بمحامي المتهم، وعندما استجوبه المحقق أعطى أوصاف الرجل الذي قابله وحادثه. ثم سرعان ما ميز المتهم لأول ما رآه.

وقال السير مارشال هول أيضا في مرافعته الختامية:-

"إن هذا الشاهد ليس له من غرض في اختراع شهادته، فلم يكن يبحث عن الإعلان عن نفسه ولكنه كرجل أمين جاء لينجد أدميا وضعت رأسه في كفة الميزان.. فهل لديكم أدنى شك في صدق هذه الشهادة التي لم تستطع مناقشة النيابة أن تنال منها أي منال!"

وانتهى السير مارشال هول من مرافعته فقام المستر تشارلس جيل ممثل النيابة فألقى مرافعة ختامية يرد بها عليه ويهدم بالمنطق القوي دفاع المتهم، وإلى القارئ فقرات منها:-

"لم يكن هناك غموض يحوط جريمة يارموث، وإذا كان المتهم هو صنف الرجل الذي وصفه محاميه نفسه فأنه أخلق الناس بارتكاب هذه الجريمة. كان المتهم حريصا كل الحرص على أن تجهل أليس ميدوز كل شيء عن زوجته وطفله فعمل على أن يتخلص منهما. إن قوة القضية لا تستند على شاهد واحد ولا على حقيقة واحدة، ولكنها تقوم على الحقائق كلها متجمعة. لقد وضعنا عدة أسئلة حيوية لم نسمع إجابة عنها.

أين كان المتهم في ليلتي ١٥ و٢٢ سبتمبر؟

وكيف حصل على الساعة والسلسلة اللتين ضبطا عنده بعد القبض عليه؟

إذا لم يكن المتهم هو الذي قتل زوجته في ٢٢ سبتمبر فمتى علم أن زوجته قتلت؟

لماذا لم يقم المتهم بأية تحريات عن مكان زوجته وطفله؟

إن من الواضح أن الجريمة مسبوقة بتدبير محكم؛ فمن الذي دبرها؟

من صاحب الدافع إلى التخلص من هذه المرأة؟

أي شخص تسببت له المجني عليها في أذى؟

لقد تعرف المتهم إلى أليس ميدوز في شهر يوليو الماضي، وتبادلا وشيكا عواطف الحب واصطحبها إلى يارموث وإلى أيرلندة ثم طلب يدها، وكان من الطبيعي أن يخفي عنها أنه متزوج وله طفل، وذلك إلى أن يتخلص من زوجته. متى علم هذا الرجل إذن أن زوجته قتلت إذا لم يكن هو الذي قتلها؟

لقد نشرت الصحف عن هذه الجريمة دعاية واسعة عرف بها كل الناس، فهل وجد من لا يعلم بها غير المتهم؟! أو هل كان المتهم يعلم أن زوجته قتلت وأنه قاتلها؟"

وانتقل النائب بعد ذلك إلى شهادة المستر دوجلاس فقال:-

"إن المتهم استطاع أخيرا أن يسمعنا شاهدا جاء في الساعة الرابعة والعشرين ليثبت وجود المتهم في مكان الحادثة وزمانها وتاريخها.. إن من المدهش أن المتهم لم يذكر شيئا عن واقعة مقابلته للمستر دوجلاس هذا مع أنها ذات أهمية له. ولم يثبت أن أحدا ما رأى المستر شولتو دوجلاس

بصحبة المتهم، وكل ما أدلى به هنا ليس سوى أوهام كونها من المعلومات التي قرأها في الصحف، وإلا فهل من المعقول أن الرجل الذي كانت لديه نقود تسمح له بالسفر إلى أيرلندة والإقامة في الفنادق.. هل هذا الرجل هو الذي يتطفل على شخص من الريف لا يعرفه ويثقل عليه من أجل أن يدعوه هذا إلى كأس من الشراب؟

***

وبعد ذلك لخص الرئيس القضية للمحلفين وفوضهم في إصدار القرار فانسحبوا إلى غرفة المداولة خمسا وثلاثين دقيقة وعادوا فنطقوا قرارهم بإدانة المتهم، ثم اصدر الرئيس حكم الإعدام.

قضية "لاندرو" السفاح الفرنسي

كانت "مدام كولومب" امرأة تحسدها صديقاتها ويغبطنها على مرحها وذكائها ورشاقتها وحسنها وبالرغم من قيام الحرب العظمى فإن الحياة كانت تبدو كأنها تسير معها في خطى رخية هنيئة.. كانت تشتغل عاملة على الآلة الكاتبة في إحدى الشركات، وكانت حالتها المالية جيدة ولحسابها في البنك رصيد بمبلغ عشرة آلاف فرنك، وكان أبواها يعبدانها، وأختها الصغرى كانت تعتبرها أمها الصغيرة، وبعد أن توفي زوجها – وكان يعمل في تجارة الحرير في مرسيليا – عادت إلى باريس، وصاحبت رجلا اسمه المسيو برنار وعاشت معه. ولكنها، في أعماق نفسها، لم تكن مطمئنة، فهي ولو أنها كانت تتزين بزي شابة صغيرة، وتبدو فعلا كأنها كذلك، إلا أن سنها الحقيقي كان أربعا وأربعين سنة

كان صديقها قد بدأ يضجر، وبدأت هي تدرك أن ليس لها أن تعتمد عليه لأنه لم يكن ليقبل الزواج بها، فنظرت إلى الأمام ورأت ما ينتظرها من سنوات الشيخوخة فاقشعرت لمرات، وفي أول مايو سنة ١٩١٥ قرأت مصادفة في صحيفة "لوجورنال" الإعلان الآتي: "أرمل في الثالثة والأربعين، له طفلان، ودخل مريح، وهو رجل جاد عطوف، ويختلط بطبقة محترمة، يريد أن يلقى أرملة ترغب في الزواج منه"

قامت في الحال فأجابت على هذا الإعلان، وأعطت كامل التفاصيل عن نفسها وثروتها وعائلتها، وقالت أنها في التاسعة والعشرين، وبعد فترة قصيرة تسلمت خطابا من رجل اسمه المسيو كيشيه، قال عن نفسه أنه مدير مصنع في مونمارتر. وواعدها على اللقاء وتقابلا.. كان الرجل نحيفا أصلع، وله ذقن حمراء طويلة كان فخورا بها، وكانت له هيئة الرجل الممتاز وكان في أول الأمر متحفظا مفرط التأدب، وكانت عيناه أعجب ما في خلقته إذ يطل منهما السحر والمغناطيسية والسيطرة. أعطاها عن نفسه من التفاصيل ما أطمأنت إليه.. كان مهاجرا بين مهاجري الحرب من بلدة "ركروا". وكان مهندسا اضطر أن يترك أعماله كلها قبل تقدم الجيوش الألمانية، ولكنه استطاع أن ينشئ أعمالا جديدة في باريس. وقال لها أيضا أن له سيارة، وشقة في باريس وبيتا صغيرا اسمه (فيلا أرميتاج) في جامييه وهي ضاحية من ضواحي باريس، وأنه يرغب في حياة الاستقرار ولذلك نشر إعلانه للزواج.. استطاع الرجل الأصلع ذو الذقن الحمراء أن يجذب السيدة ويكسب قلبها بسلوكه المهذب نحوها. لم يكن رجلا عاديا، بل كان جنتلمان مهذبا، وذكيا، وله هيئة الرجال العارفين بأسرار الحب.

سرعان ما تبدد التحفظ، فبدأ يستعمل لغة الهوى وكان يتقنها وذاب قلبها تحت حرارة عباراته، وفي هذه السن التي يذبل فيها القلب عادة، عاد غرام مدام كولومب أشد ما يكون التهابا.. تتابعت بينهما المقابلات، ولكن العلاقات فترت حينا من الزمن، إذ كانت أمام المسيو كيشيه عدة مهام أخرى. إذ جاءته إجابات عديدة على إعلانه، فلم يجد في وسعه أن يولي هذه السيدة المتدلهة في حبه كل ما تطلبه من عطف واهتمام، ولذلك مرت سنة قبل أن

يستأنفا علاقاتهما، وكان هو في خلالها قد أفرغ يده من عدة مؤامرات أخرى وتخلصت هي من المسيو برنار

أخذها معه لتزور منزله الصغير في ضاحية جامييه فأعجبت به، ثم صارا خطيبين، ودعته طبعا لتقدمه إلى أهلها، ولكنه مانع في ذلك أول الأمر وقال أنه يريدها هي وليس أقاربها. فلما ألحت عليه قبل، وخرج من هذه الزيارة بشعور النفور من أمها، وخاصة من أسئلتها عنه وعن أعماله

وبعدما خرج من بيت أهلها، أخذت مدام كولومب تسأل أمها رأيها فيه، فأبدت الأم عدة ملاحظات وقالت إن سنه لم تتناسب مع سن ابنتها، وأنها لم تهضم أسلوبه في الحديث عن الشئون المالية، وعندما سألت ابنتها عما إذا كان هذا الرجل قد استولى منها على مبلغ من النقود تهربت من الإجابة على السؤال ولكن شيئا من هذا لم يكن ليطفئ من هوى مدام كولومب وعندما جاءها "كيشيه" يحرضها على أن تهجر شقتها وتنضم للإقامة معه في بيته قبل زواجهما، قال لها أن من الحمق أن ينفقا على شقتين، فرفضت أولا، ولكنها وافقت في النهاية وسمحت له بتخزين أثاثها.

وفي نوفمبر سنة ١٩١٦ هجرت بيتها في شارع روديبه، وذهبت لتعيش معه في شارع شاتودان وكانت تبدو سعيدة جدا. وقبل عيد الميلاد بأيام قليلة استقالت من وظيفتها قائلة أنها ستتزوج في الأسبوع التالي

وفي ٢٤ ديسمبر دعت شقيقتها لزيارتها في فيلا أرميتاج في ضاحية جامييه

أعجبت الفتاة بالمنزل، وعاملها كيشيه – وكان اسمه في تلك الناحية هو المسيو فريميه – باحترام شديد. فعادت إلى باريس وقد امتلأت شعورا طيبا نحوه، خصوصا بعد أن أخبرتها شقيقتها وأكد لها هو، أنهما سوف يسارعان بعقد الزواج

وفي عيد الميلاد تناولت مدام كولومب طعام الغداء مع أمها، وأخبرتها بأنها ستتزوج قريبا، وسترحل مع زوجها إلى (نيس) وقالت أنها ستعود في خلال يومين لتخبر والديها بما يجد من إجراءات مشروع الزواج، وخرجت، ومنذ هذا اليوم لم تعد، اختفت نهائيا، ولم تستطع أسرتها أن تعثر على أي أثر لها أو للرجل.. اختفى أثاثها، كما اختفى كل رصيدها في البنك. كتبت شقيقتها إليها وإليه في جامبيه ولكن لم يصلها جواب، فاضطرت أن تكتب إلى العمدة وتشرح له هذه الظروف وتسأله إذا كان في استطاعته أن يكتب إليها عن مكان وجود المسيو كيشيه وكيف يمكن الاتصال به..

كان العمدة قد تسلم قبل ذلك بقليل خطابا من فتاة اسمها (لاكوست) تعمل خادما في باريس كانت لها شقيقة اسمها مدام يوبسون ذهبت تزور فيلا أرميتاج مع رجل اسمه (مريمييه) ثم اختفت، تحروا عن ساكن هذا المنزل فوجدوا أنه استأجره باسم المسيو ديبون. وعندما بحثوا عنه وجدوا أنه قد اختفى كذلك، فاقترح العمدة أن تتصل عائلتا المرأتين المختفيتين.. اتصلت عائلة مدام كولومب بالآنسة لاكوست، وقارنا ملاحظاتهم، فتطابقت أوصاف الرجلين (كيشيه، وفريمييه) مع الأوصاف التي أعطيت عن مستأجر فيلا أرميتاج المسيو ديبون كأن الثلاثة في واحد.

ذهبوا إلى البوليس، الذي اهتم بأقوالهم نظرا إلى أنه تلقى قبل ذلك عدة بلاغات عن نساء اختفين بنفس الطريقة، كانت القضية من نصيب المفتش (آدم) البوليس السري، وسرعان ما توصل إلى أن كيشيه، وفريمييه، وديبون كانوا رجلا واحدا. وفي ١٠ أبريل سنة ١٩١٩ صدر الأمر بالقبض على هذا الرجل. وفتشت فيلا أرميتاج عبثا، وبث حول الفيلا بعض رجال البوليس للقبض عليه إذا عاد إليها.

وفي اليوم التالي لصدور أمر القبض كانت الآنسة لاكوست تسير في شارع ريفولي في باريس فرأت فجأة الرجل الذي يبحثون عنه، يصطحب في ذراعه شابة أنيقة الملبس، دخل الاثنان إلى أحد المطاعم فتبعتهما لاكوست، وسمعت فريمييه يأمر بإرسال طعام العشاء إليه في مسكنه. وحاولت أن تتابع اقتفاء أثره بعد الخروج من المطعم، ولكنه غاب عنها وسط الزحام فهرولت إلى أقرب نقطة للبوليس وأسرع رئيس البوليس يقبض على مفتاح القضية، وعلم من المطعم أن العشاء المعد قد أمر به رجل اسمه (لوسيان جييه) في شارع روشوار. أما الفتاة التي معه فكان اسمها الآنسة (فرناند سجريه) وكانت في السابعة والعشرين من عمرها وقالت عن نفسها أنها مغنية، وكانت شقراء، قصيرة القامة، نحيلة وجميلة. وقد قالت فيما بعد عن هذا الرجل (ليس عندي ما ألومه عليه. لقد أحببته من كل قلبي. وكنت معه سعيدة جدا. جدا)

في الساعة السابعة من صباح ١٢ أبريل ترك المسيو لوسيانجييه شقته ليشتري إحدى الصحف ثم عاد، وبعد لحظات سمع باب شقته يقرع ففتحه

بنفسه. وفي لمح البصر دخل اثنان من رجال البوليس فألقيا القبض عليه، واحتج هو بشدة قائلا: "أنا لوسيان جيبه، ومولود في مدينة روكررو في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٤"، وعندما أخبروه بأنه متهم بالقتل بدأ كأنه بوغت وقال: "إن هذا شنيع أن تتهموني بالقتل. إن هذا رأس رجل". وعندما استجوبوه قال: "لن أتكلم إلا بحضور أحد المحامين". واتبع بعد ذلك سياسة الصمت المطبق الذي أتعب المحققين. فتشوه فعثروا في جيبه على مذكرة جيب صغيرة بذل مجهودا يائسا للاستيلاء عليها بعد أخذها منه. وكانت هذه مذكرة الجيب المشهورة التي كان لها شأن كبير في القضية.

أخيرا جعل ينظر حوله في أنحاء الغرفة النظرة الأخيرة، وبدأ يغني بعض سطور من الأوبرا المشهورة (مانوليسكو) ومنها هذه العبارات:-

(وداعا يا مائدتنا الصغيرة. كانت لنا كأس واحدة. وكان كل منا، عندما يشرب يبحث عن شفتي صاحبه. آه يا صديقي المسكين. كم كان يحبني. وداعا يا مائدتنا الصغيرة.. الوداع).

اتضح من البحث عن ماضي هذا الرجل بعد ذلك أنه مجرم هارب من وجه العدالة اسمه (هنري ديزيه لاندرو) الذي بدأ حياته الإجرامية في سنة ١٩٠٠ حيث حكم عليه بالحبس ثلاث سنوات في جريمة نصب ضد أرمل اتفق معها على الزواج. وفي سنة ١٩٠٤ حكم عليه أيضا بالحبس سنتين في جريمة نصب أخرى. وفي سنة ١٩٠٦ حكمت عليه محكمة السين بالحبس ثلاثة عشر شهرا في جريمة أيضا، وفي سنة ١٩٠٦ حكم عليه بالحبس ثلاث

سنوات في جريمة خيانة الأمانة. وفي سنة ١٩١٠ حكم عليه بثلاث سنوات في جريمة نصب. وفي يوليه سنة ١٩١٤ هرب من وجه البوليس الذي كان يبحث عنه للتحقيق معه في جريمة نصب أيضا. وحكم عليه غيابيا بالحبس أربع سنوات وبالنفي إلى غينيا الجديدة

أخذه البوليس إلى ضاحية جامبيه حيث فتشت الفيلا في حضوره، وتجمع القرويون في فضول ودهشة، وسرعان ما ميزوا المقبوض عليه أنه المسيو ديبون، ولكن رجال البوليس لم يعثروا على شيء فيما عدا جثث ثلاثة كلاب مدفونة في الحديقة. وقال لاندرو – وسنسميه من الآن بهذا الاسم – أنه كان يملك هذه الكلاب، ولكن أحد المتجمعين صاح بصوت مرتفع. ليس هذا صحيحا. فهذه الكلاب كانت لسيدة صغيرة شقراء جاءت معه.

ومن جامبيه، نقل لاندرو إلى سجن مانت، وفي نهاية أبريل نقل إلى سجن لاسانتيه.. في باريس ذاعت أخبار لاندرو والتهم الموجهة إليه، فأثارت عاصفة من الاهتمام، وابتدأت دور النيابة والبوليس تفيض بالبلاغات عن نساء مختفيات، وأخذت الإشاعات المعتادة تذيع عن عدد الضحايا حتى قيل أن لاندرو قتل ثلاثمائة امرأة، وسرعان ما أخذت الجماهير تخلع عليه ألقابا طريفة منها (زير نساء جامبيه) و(الرجل ذو المائة زوجة والمائة اسم)..

بدأ البوليس تحقيقاته باستجواب لاندرو نفسه، ولكنه لزم خطة الصمت التام، وعندئذ أخذوا يفتشون البيوت التي كان يسكنها، فعثروا على ملابس داخلية نسوية وعليها علامات بالأحرف الأولى من أسماء النساء اللاتي ظن

أنهن ضحاياه، ولم يعثروا بعد ذلك إلا على بعض خرق وحذاء امرأة، وبعض الأثاثات وشعر مستعار وأوراق تخص أولئك الضحايا.

وفي فيلا أرميتاج وجدوا في إحدى الغرف فرنا هو الفرن الذي قالت النيابة فيما بعد أنه كان يحرق فيه جثث ضحاياه، ولاحظوا على الرمال كذلك بعض بقع قالوا أنها آثار دماء، وعندما فحصوا بعض الأتربة ورماد الفرن وجدوا عدة مئات من قطع عظيمة صغيرة قرر الخبراء الطبيون أنها بقايا عظام آدمية لثلاثة أشخاص على الأقل. وإن كان من غير الممكن الجزم بما إذا كان هؤلاء الأشخاص رجالاً أو نساءً.

وجدوا في المذكرة ذات الغلاف الأسود التي عثروا عليها معه عدة أسماء مكتوبة بالقلم الرصاص. وهذه هي الأسماء: (كيشيه. ج بريزيل. كروزاتييه. هافز. بويسون. جوم. باسكال. مارشادييه).

هذه الأسماء هي قائمة النساء العشر اللائي اختفين، ومعهن ابن إحداهن، في ظروف يرجع معها أن لاندرو قتلهم. وقد استعلمت المذكرة ذات الغلاف الأسود في كتابة الحسابات اليومية للإيراد والمصروف. وعندما حلت دلالة هذه الأرقام، اتضح أنه عندما كانت تذهب إحدى السيدات إلى فيلا أرميتاج في ضاحية جامبيه وتختفي كان لاندرو يشترى في المترو تذكرتين إحداهما للذهاب والإياب. والأخرى للذهاب فقط، ويكتب أجر التذكرتين من محطة باريس إلى المحطة القريبة من جامبيه. وبجانب أرقام التذاكر وجدت أرقام أخرى رجح أنها الساعات التي تم فيها قتل الضحايا.

كان لاندرو يباشر ارتكاب جرائمه وحده، ولم يستطع البوليس أن يهتدي حتى إلى شريك واحد له في جرائمه. كانت له موهبة الصمت والوجوم، وكان وضيعا جشعاً فوق ما يتصور العقل.

وجدوا أيضاً إعلانات للزواج في صحف باريس كان هو الذي نشرها. واتضح أن سبعه من هذه الإعلانات أتت إليه بمائتين وثلاثة وثمانين جوابا رتبها كلها في ملف خاص على طريقة رجل الأعمال. وكان يكتب عليها تعليقات. مثل: للإجابة في صندوق البريد. أو بلا نقود. أو بلا أثاث. أو لا إجابة. أو للإجابة بالأحرف الأولى في صندوق البريد. أو ثروة محتملة. أو للحفظ مع تحريات أخرى..

وقد اتضح أنه اتصل بمائة وتسع وستين امرأة منهن. ولف بعناية أوراقاً فيها تحريات واسعة عنهن وعن أولادهن وثرواتهن وأقاربهن وغير ذلك. وتصيد البوليس أكثر هؤلاء السيدات، ولم يستطع أن ينال منهن معلومات ذات أهمية، وبعضهن قلن أنه سرقهن تحت وعد بالزواج. أربعة من المختفيات عرفوا وهم مدام كولومب، ومدام كيشيه وابنها، ومدام يويسون. فمن هن الباقيات؟..

تقدمت بعض جارات هؤلاء السيدات بأوصاف عنهن، قلن أنهن زرن الفيلا، ولم يشاهدهن أحد بعد ذلك. وسئل حوذي كهل نقل في عربته بعض الزائرات إلى الفيلا. وأمكن بالتدريج معرفة شخصيات باقي الضحايا

ماذا حدث للنساء المختفيات وللشباب؟.. إنهم وإن يكونوا قد غابوا عن الأنظار، فليس من الضروري أن يكونوا قد قتلوا، فربما يكون لاندرو قد عذبهم وأخفاهم في مخبأ ما، وربما يكونون قد اختفوا بإرادتهم، وربما يكون هذا الرجل من تجار الرقيق الأبيض وقد قدمهم لبعض البيوت القذرة.

كان التحقيق عسيراً وشاقاً نظراً إلى التزام المتهم خطة الصمت المطبق، وبعد نشر أسماء المختفيات والشاب جاءت إلى البوليس تقارير كثيرة كان أغلبها مزيفاً كتب لمجرد العبث.

فهل أحرق هذا الرجل ضحاياه في الفرن...؟

أجرى البوليس عدة تجارب في هذا الفرن على جثث بعض الحيوان، ولكن دون نتيجة، ونزحت البرك القريبة من الفيلا الملعونة، وقيلت أقوال كثيرة منها أن أحد المهندسين قال أنه شاهد رجلاً يوقف سيارته على بعد كبير منه، ثم سمع صوت إلقاء شيء ثقيل في الماء، وقالت بعض السيدات أنهن رأين مرة شيئاً يطفو على سطح إحدى البرك ثم غاص في القاع في اليوم التالي، ولكن كل هذا لم يأت بنتيجة.

كان من ضمن ما كتبه لاندرو في مذكراته ثلاثين سطراً ظهر أنه كتبها فيما بين سنتي سنة ١٩١٦، ١٩١٧ ضمنها بيانا عن الصعوبات التي تصادفها العدالة في تمييز جثث الغرقى، وكتب أمثلة لبعض القضايا.

وكان هناك اشتباه كبير في أن لاندرو قد قتل أيضاً امرأة اسمها مدام بنوا وهي أرملة اختفت في تاراسكون، وعثر البوليس على جثتها في نهر صغير، ولكن البوليس قبض على القاتل الحقيقي وظهرت براءة لاندرو من هذه التهمة.

***

يظهر ما تقدم قدر الصعوبات التي عاناها البوليس للكشف عن هذه الجريمة الغامضة، ولم تلبث القضية أن أحيلت إلى قاض التحقيق ليتمه وليجعل القضية صالحة للنظر أمام المحكمة.

كان قاضي التحقيق في قضية لاندرو هو المسيو يونان، وتساعده مجموعة من أقدر خبراء الجرائم في فرنسا، فبذلوا عبثا كل محاولة في نصح المتهم بالاعتراف، أو حتى بالإجابة.

كانت طريقة لاندرو في غاية البساطة: لا أعرف شيئاً، ليس عندي ما أقول.

ولم يكن يتكلم أو يجيب إلا في الموضوعات التافهة. أما في الباقي فكل ما يقوله هو:– ليس عندي ما أقوله.. لا أعرف أني برئ.. إنكم أنتم الذين تتهموني.. عليكم أنتم أن تقيموا الدليل..!

لم ينكر علاقته بأكثر النساء اللاتي اختفين، وعندما سئل عما يعرفه الآن عنهن أجاب كأنه رجل نبيل:

– إني رجل شريف، ولا أسمح لكم بتوجيه أسئلة عنهن، فإذا كان قد اختفين، فليست لي علاقة بذلك، لا أعرف مصائرهن اكتشفوا الأدلة، هاتوا برهانكم وعندئذ سأفحصه معكم. إني برئ، وعليكم أن تثبتوا التهمة!

إن بساطة طريقته هي كل قوته، وكان أحياناً يعبث بالمحقق ويداعبه، وقد شهد أحد الشهود مرة أن لاندرو هو الرجل الذي رآه يخرج مع إحدى المختفيات، وكانت الشهادة ضعيفة ولا قيمة لها، ولكن المدهش أنه بدا على أندرو أنه انزعج منها، وبعد أن خرج الشاهد تفرس قاضي التحقيق في لاندرو وقال له بصوته القوي: يبدو لي أن حملاً ثقيلاً يهبط ضمير. فما هو؟ ... ثق بي

فكانت إجابة لاندور:– يا سيدي القاضي، إني رجل كسير القلب إذا فكر في أنه بسبب هذه القضية علمت زوجتي أني كنت أخونها...

وكان التحقيق يستمر ساعات طويلة من أول النهار إلى آخره. وفي النهاية كان القاضي المحقق المنهك القوى يصيح فيه يائسا:– ألن تقول شيئاً.. فيجيبه: لا شيء. فيصيح القاضي: أخرجوه. استمر قاضي التحقيق يحقق من شهر مايو سنة ١٩٢١ إلى سبتمبر سنة ١٩٢٢ أي ستة عشر شهراً. واستغرق التحقيق سبعة آلاف صحيفة، ولذلك نجتزئ مثالاً واحداً: فلنأخذ مثلا مسألة اختفاء مدام مارشادييه.

في شهر يناير سنة ١٩١٨ كان لاندرو مفلسا خالي الوفاض، وتراكمت عليه الديون وعجز عن سداد فتعرف بمدام مارشادييه وأخذها في منتصف

يناير ومعها كلباها إلى جامييه. وقضيا هناك يومين، وقال الشهود أنهم لاحظوا لمعات غريبة للنور في مطبخ الفيلا في ذلك الوقت، وعاد لاندرو إلى باريس وحده. واختفت صديقته، وذهب هوائي مسكنها في شارع سان جاك ونقل جميع أثاثها وباعه، ثم سدد معظم ديونه. ووجه لاندرو بشهادة الشهود فقال: لن أجيب.

المحقق: فلننظر. مثلاً هنا خطابات كتبتها إليك مدام مارشادييه. كنت تقابلها كثيراً والخطابات تتحدث عن رحلات اتفقتما عليها. هذه الرحلات وقفت فجأة. لماذا..

لاندرو: إني أكرر يا سيدي القاضي إني لن أجيب على أسئلة تتعلق بحياتي الخصوصية.

المحقق: إنك اصطحبت مدام مارشادييه في ١٣ يناير. وبعد هذا لم يعثر لها على أثر. فماذا حدث لها؟

لاندرو: ليس عندي ما أقوله.

المحقق: لقد نقلت أثاث بيتها في ١٤و ١٥ يناير. لماذا...؟

لاندرو: هذا شيء يخصني.

المحقق: ألا تريد الإجابة...؟

لاندرو: ليس عندي ما أجيب به.

المحقق: أنت قاتل

لاندرو: إنك تقول هذا، فاثبت، انظر، تحر، حقق، خيل، ولكن اثبت إذا كنت تستطيع ..

وعندما واجهه المحقق بتقارير الأطباء الشرعيين الذين فحصوا رماد الفرن وقالوا إن قطع العظام والأسنان التي عثروا عليها إنما هي بقايا جثث آدمية. قال: إنك تسأل عن البراهين، فهاكها

هز لاندرو كتفيه وقال: ليس عندي ما أقوله.

* * *

قدم لاندرو أخيراً إلى المحاكمة بتهم السرقة والتزوير والقتل أمام محكمة جنايات سين أتواز وأدخل سجن فرساي انتظاراً للمحاكمة، ومن الطريف أن نذكر هنا أن ساعي البريد كان يحمل إليه كل يوما رزما من الخطابات وتذاكر البريد منها خطابات غرامية عديدة من نساء مجهولات.

كان برأي المحكمة المستشار (جيلير) وهو قاض قوي وممتاز. وكان يمثل النيابة الأفوكاتو العمومي الأستاذ جود فروي من أشهر رجال القانون في فرنسا. واختار لاندرو للدفاع عنه أبرع وأشجع محام في فرنسا في المسائل الجنائية، وهو الأستاذ (دومورد جيافيري) الذي كان يتقدم للدفاع عن أي متهم يؤمن بعدالة قضيته مهما واجه من سخط الرأي العام وغضبه. ويكفي أن نقول أنه الذي تولى الدفاع في قضية الوزير الفرنسي المشهور كايو ( ) (وهمبر) المتهمين بالخيانة العظمى في الحرب الماضية. وكان مشهوراً

بمرافعاته التي تحرك القلوب، ولكنه قبل أن تبدأ محاكمة لاندرو قال لبعض أصدقائه أنه سيكون هادئاً وباحثاً علمياً لخطيبها. ومثل بعض كبار المحامين بعض المدعين بالحق المدني من أهل النساء المختفيات.

* * *

وبلغ اهتمام الجمهور أقصى درجات الحماسة، وكان السماح بحضور الجلسة مقصوراً على حاملي البطاقات، ولكن البطاقات التي صرفت كانت أكثر بكثير من عدد المقاعد، فتدفق الناس تدفقاً شديد إلى القاعة يتدافعون بالأيدي وبالمناكب، وبالصياح لاحتلال المقاعد الأمامية، وتعلقت نساء كثيرات بالنوافذ، واحتلت أخريات مقاعد الصحفيين ولم يمكن إقصاؤهن عنها. وعندما ظهر لاندرو حيوه بصياح شديد، ووقفوا على أطراف أصابعهم يحدقون فيه ويشرئبون بأعناقهم نحوه وكان الجالسون والواقفون في الخلف يصيحون فيمن أمامهم يطلبون جلوسهم ليأخذوا نصيبهم من التفرج على الوحش الأسير...

بدأ الأفوكاتو العمومي فأشار إلى القبض على لاندرو وما أحدثته إذاعة التهم الموجهة إليه في الرأي العام من الاشمئزاز والفزع.

كان كل فرد يتساءل: كيف يمكن أن ترتكب هذه الجرائم في أيامنا هذه؟.. وكيف يمكن أن يختفي هذا العدد من الضحايا من غير أن يتركوا أي أثر ؟.. كيف يستطيع مجرم أن يعيش كل هذا الزمن طليقاً يرتكب عمل الموت في هدوء ومن غير قلق؟.. أمثل هذه الجريمة ممكنة.؟

"دخل الشك الرأي العام حتى قيل أن هذه القضية نظمتها الحكومة لتبعد الاهتمام عن معاهدة السلام التي كان يخشى ألا تحقق كل آمالنا من النصر، ولكني أؤكد أن كل جرائم لاندرو كانت حقيقية وليست من بنات الخيال. بدأ لاندرو حياته الإجرامية محتالا، ولكن لما عرضته أعماله للسجن، ترقى فصار قاتلاً.

فعندما اكتشفت مدام كيشيه صحبته الأولى أنه كان متزوجا ورب عائلة، أدرك أنه سيأتي يوم تبلغ فيه عما ارتكبه ضدها من النصب والسرقة وعندئذ يقع في قبضة البوليس الذي كان يجد في البحث عنه.. ومنذ هذه اللحظة نبتت في رأسه هذه الفكرة الخبيثة للتخلص منها، وهكذا تتابعت بقية الجرائم".

والتفت الأفوكاتو العمومي إلى المحلفين صائحاً:–

"إن أمامكم قاتلاً بلغت قسوته ووحشيته أقصى قدر الطاقة الآدمية. أنه يركع في الكنسية كقديس بجانب إحدى خطيباته وبعد ساعات يكون منحنياً فوق جثتها وهو يمزقها إربا، ثم يذهب هادئ النفس والضمير يريح رأسه فوق صدر عشيقه أخرى!.

"كيف كان يقتل؟.. وكيف كان يتخلص من جثث ضحاياه؟" هذان السؤالان تعترف النيابة بكل أمانة أنها لا تستطيع أن تجيب عنهما، ولكن ألم تر في طول هذه المحاكمة بعض ضحاياه يبرزون من لحودهم ليشهدوا أعضاءهم المحترقة في فرن جامييه".

ثم انتقل إلى القسم الثاني من مرافعته فذكر المحلفين بأن برهان الجريمة إنما هو حقيقة أو مجموعة من الحقائق تؤدي كلها إلى تأكيد إدانة المتهم، وأخذ يسرد الأدلة التي عبأتها النيابة ضده وهي:

١- أن الأوراق ومذكرة الجيب التي وجدت مع لاندرو فيها قائمة بأسماء مائتين وثلاث وثمانين امرأة اتصلن به بالمراسلة، وإن مائتين وثلاثا وسبعين منهن وجدن على قيد الحياة، واختفى عشرة.

٢- إن مذكرة الجيب ذات الغلاف الأسود تشير إلى أنه كان يشتري في المترو تذكرة ذهاب فقط لكن منهن في نفس اليوم الذي تختفي فيه بينما كان يشتري لنفسه تذكر للذهاب والإياب. وكذلك تشير المذكرة في نفس اليوم إلى ساعة من النهار هي الساعة التي تلاقي فيها الضحية حتفها.

٣- إن لاندرو كان يتبع طبقة واحدة يبت بها الروابط بين المرأة المختفية مازالت على قيد الحياة فمثلاً بعد خمسة عشر يوماً من اختفاء مدام باسكال تسلمت أختها منها خطاباً كان لاندرو قد غير تاريخه.. الخ.

ثم قال:- "والآن يتبقى لي- قبل أن أصل إلى تقارير الخبراء التي ستمدكم بآخر أسباب الإدانة - يتبقى لي حيازة لاندرو للأشياء التي كانت تملكها الضحايا، فلنفرض أن شخصا ما سافر بعيدا لأجل ما - مهما يكن هذا الأجل - فإنه لا يترك الأشياء التي يمكن نقلها، ولا يتخلى عن الأشياء التي قيمتها الوحيدة أنها تمثل بعض الذكريات، وكذلك لا يترك الوثائق العائلية والأوراق المثبتة للشخصية. لقد قالت شقيقة مدام كيشيه وهي تخاطب

لاندرو، لو أن شقيقتي على قيد الحياة، فإنها ما كانت تتردد في المجيء لتنقذ رقبتك من المقصلة ولو كانت في آخر الدنيا لأنها كانت تحبك"، ولكن مدام كيشيه لم تحضر يا حضرات المحلفين.. ولم تحضر واحدة أخرى من الباقيات، وعند هذا المتهم وجدن أخص وأثمن ما يمتلكن"

وأخذ الأفوكاتو العمومي بعد ذلك يصف تفتيش الفيلا يوم ١٣ أبريل سنة ١٩١٩ وأبدى أسفه على أنها لم تختتم بعد التفتيش، وقال أن ما لا ينكر أن ذلك لم يطابق أحكام القانون، وأنه يوافق الدفاع تماماً في هذه النقطة. ولكنه عاد يلتمس لرجل البوليس العذر في ذلك فقال أنهم في هذا الوقت كانوا يبحثون عن جثتين وهما للمرأتين اللتين حصل التبليغ عن اختفائهما أول الأمر؛ فلما لم يجدوا شيئاً رأوا أن من العبث إجراء بحث آخر. ومع ذلك فإن الأختام وضعت قبل التفتيش الثاني الذي تم في ٢٩ أبريل والذي عثروا فيه على قطع من عظام آدمية هذا ليس للاندرو أن يشكو اليوم من مؤامرة ارتكبها البوليس أو أي حد آخر. وناشد المحلفين أن يرفضوا أي دفع من هذا النوع يقدمه الدفاع.

ثم قال:- "فما هي الاعتراضات التي يستطيع لاندرو أن يثيرها ضد أبحاث الأطباء الشرعية.. إن اكتشاف قطع من العظام الآدمية خارج بناء منزل منعزل، ليس بالمسألة الهينة، وعندما نعلم أن هذا المنزل كان في حيازة مجرم عائد، عنده كل الأسباب التي تحمله على أن يأخذ حذره من التفتيش المحتمل، فإننا نستطيع أن نستيقظ أن هذا الرجل قد اتخذ كل تحوط فدمروا حرق كل ما يمكن أن يؤدي إلى التحقق من شخصيات ضحاياه. الرأس

واليدين والقدمين؛ ففي جاميه وحدت بقايا ثلاثة رؤوس وخمس أقدام وست أيد".

وأتي بعد ذلك على تقارير الخبراء، وانتهى إلى القسم الأخير من مرافعته قائلا:-

"فيما يخصني، أن عندي الاعتقاد العميق الذي لا يتزعزع في أن هذا المتهم هو القاتل الحقيقي لعشر نساء وغلام .. فباسم هؤلاء أطلب القصاص.. أي مصير تدخرونه له.. إني كخادم للقانون، جئت هنا أطلب أن تطبقوا عليه أقصى العقوبة.. لا تبحثوا عن ظروف مخففة، لا شفقة. إن الموت هو القصاص الفذ لهذه الجرائم البشعة التي أرتكبها مدفوعا بأحقر البواعث.. بواعث الطمع الذي أكسبه خمسة وثلاثين ألفا من الفرنكات، وجعله يرتكب في هذه الحقبة الدامية من الزمن أفعالا وصلت إلى أقصى غايات القسوة فلكي يعيش على هامش المجتمع لم يتردد في أن يخرب ويدمر كل شيء. لقد ارتكب إحدى عشرة جريمة قتل بكل هدوء. وبطريقة واحدة، وبنفس التدبير.. سائلوا أنفسكم: "مَن مِن بيننا يدعي لنفسه الحق في أن يصدر قضاءه على آخر ؟.. لقد قال لامنيه (إني ليتملكني الجزع عندما أفكر في أن هناك إنسانا يصدر قضاءه على آخر)، ولكن الحقيقة قائمة أمامكم، وليس يداخلني أي شك، وأني لأعلن ذلك بكل ما في وسعي من قوة، والخطأ القضائي مستحيل في هذه القضية.. إني هنا لأؤدي واجبي، مقتنعا في أعماق ضميري، وإني في اقتناعي، محمل بإحساس رفيع بأهمية

واجبي نحو المجتمع.. إني لأطلب حكما بالإدانة لكل التهم بدون ظروف مخففة.. أطلب أقصى العقاب.. الموت للاندرو وسفاح جاميه..

لا رحمة ولا شفقة، إنه مسئول عن كل أعماله بلا عذر، وقد شهد الأطباء بذلك كما ثبتت قدرته التي تبدت في المناقشة أمام قاضي التحقيق دليلا على إدراكه.. إنه لم يرحم ضحاياه فلماذا نرحمه؟.. الموت الموت.. صدقوني، إنه الجزاء الوحيد الخليق بجرائمه والكفارة الكافية عنها.. إن من الخير أن ترتفع المقصلة عندما يكون ذلك لازما لطمأنينة المجتمع وأمنه.. لقد آمن بهذا وأعلنه فولتير وروسو. وقال منتسكيو العظيم في كتابه (روح القوانين) أن المواطن يستحق الموت إذا أزهق روحا. إن عقوبة الإعدام هي الدواء للمجتمع المريض.

"إني أتوسل إليكم.. لا تترددوا.. اضربوا بلا وهن. إن هذا السفاح ليس له عذر.. إن لاندرو سوف يعيش في تاريخ الجريمة كمزهق لإحدى عشرة روحا آدمية.. قتل لكي يسرق.. إنه يميز الحق من الباطل.. هو الذي خدم في صباه في كنيسة لويز آن ليل. فمن ربه الذي قضى في بيته حقبة من عهد البراءة؟.. إن هذا الرب وحده يمكنه أن يسأل المغفرة التي لا تستطيع العدالة الإنسانية أن تمنحه إياها إلا إذا تخلت عن واجبها نحو المجتمع.. إني أدعوكم يا حضرات المحلفين أن تؤدوا واجبكم للمجتمع كاملا.

***

جلس الأستاذ جود فروي وسط همهمة من عبارات الإعجاب والتأييد، وسرى بين النظارة إحساس بأن هذه القطعة الفنية قد سحقت المتهم وتكاد تعجز عن الرد عليها، وكانت صيحاته بطلب الموت للاندرو ومازالت تدوي في الآذان عندما نهض الأستاذ دومور جيا فيري ليقدم مرافعة الدفاع.

وفي خلال خمس دقائق كانت مرافعة الأفوكاتو العمومي قد نسيت تماما عندما تدفق محامي لاندرو بواحدة من أندر وأعجب المرافعات التي رددتها قاعات المحاكم الفرنسية في أيامنا هذه.

وفي اليوم الأول ترافع الأستاذ دومورو جيا فيرى ثلاث ساعات مرتجلا من غير رجوع إلى أية مذكرة، ومن غير تردد أمام اسم أو تاريخ. ولم يتم مرافعته إلا في اليوم التالي. وعندما انتهى منها خيل إلى جميع أنه مهما يكن الحكم ضد لاندور فإنه لن يكون الإعدام

بدأ المحامي العظيم يدافع عن لاندرو إذ رفض الكلام عند استجوابه، وقرأ النص القانوني الذي يبيح للمتهم أن يجيب أو لا يجيب خلال التحقيق وقال "إن هذا الرجل له الحق بمقتضى القانون في أن يجيب أو يصمت. فمن ذا الذي ينكر عليه هذا الحق"

ثم التفت إلى الأفوكاتو العمومي وصاح بصوت ملئ بالعاطفة:

"بينما كنت يا سيدي الأفوكاتو تسأل المحلفين حكما بالإدانة بلا رأفة، بينما كنت تقول أنك لا تعتقد باحتمال وقوع خطأ قضائي في هذه القضية،

كنت أرثي لحالك.. لقد قلت لهم يمكنكم أن تقتلوا هذا الرجل بضمير مطمئن، إني مقتنع بإجرامه

"أنت مقتنع! أليس كذلك.. فهل نعتقد أن كل أولئك الذين طلبوا قبلك، من فوق مقعدك السامي الحكم بالإعدام، لم يكونوا أيضا مقتنعين.. ومع ذلك فإنك تعلم كم من إمضاءاتهم التي مهروا بها طلبات الإعدام، قد حسبت – بعد إيمان صادق مثل إيمانك – كأخطاء قضائية.. ولكن بعد أن سبق السيف العدل. إني أفهم كيف كان قلبك يدق تحت ردائك الأحمر وأنت تتكلم!

"حضرات المحلفين. كونوا على حذر من هذا الإيمان للزائف؛ فليست المسألة مسألة إيمان، بل برهان.. إني أطلب منكم أن تعلنوا بضميركم وبحرف القانون – مهما تكن نظرتكم إلى هذا الرجل – إن هذا الملف المعطى لكم لا يمكن أن يدينه، لأنه لا يتضمن دليلا على القتل.. يجب أن تنالوا الدليل الذي يتكئ عليه اقتناعكم.. إنه يقول لكم، اضربوا، اخربوا هذا القاتل.. فهل قال لكم كيف.. وأين.. وفي أي الظروف.. ولأي الأسباب ارتكبت جريمة القتل.. لا.. إنه يعترف بأننا لا نعلم.. النيابة لم تستطع أن تنبئكم بذلك في قرار الاتهام... وهنا اضطروا إلى الاعتراف بذلك. لم يسبق مطلقا يا حضرات المحلفين أن ثبت الشك بمثل هذا التبجح.. إن النيابة تسألكم أن تعاقبوا جرائم هي نفسها تعترف أنها لا تعرفها ولا تستطيع إثباتها كما يتطلب القانون أن تثبت.

"لقد خاب سعيك يا سيدي الأفوكاتو العمومي.. براهينك أين هي.. إنها براهين جامييه. الدخان والفرن والمذكرة والبرقيات.. أليس كذلك؟.. سأريكم أن هذه هي براهين البراءة؛ إن شهادة الشهود التي قدمتموها ليس فيها دليل واحد على الإدانة، ولذلك فإنك لم تقتنع أنك لم تجرؤ حتى على افتراض نظرية ارتكاب هذه الجرائم، فكل ما قلته لهذا الرجل هو (تكلم وربما يعفى عنك.. وإلا فالمقصلة) القانون يقول للاندرو (يمكنك أن تلزم الصمت).. إن واجبك يا سيدي أن تعيد له قولة القانون. فهل فعلت؟.. لا.

"لقد لوحت للمتهم بمنظر الدم الذي يخضب المقصلة. لقد أريته الثقب الذي يوضع فيه رأس المحكوم عليه قبل أن يسقط من فوق كتفيه.. لقد قلت له. تكلم.

"إن آباءنا يا حضرات المحلفين قاموا بالثورة في هذه البلاد لينشئوا حقوق الحرية، وأحد هذه الحقوق أن تلزم الصمت أمام الاتهام.. قد يكون لاندرو محتالا وصاحب سوابق، ولكن هذا لن يؤثر في حقه في أن يرفض الإجابة التي حاول الأفوكاتو العمومي أن يقهره عليها.. فإذا قررتم أن لاندرو يستطيع أن يلزم الصمت، فلا يبقى للنيابة إلا الافتراض وأن تقيم عليه قضيتها، وليس الافتراض الوحيد في قضية لاندرو هو القتل، فهناك احتمالات كثيرة سأريكم إياها.

"وليس عندي ما أثير به حماسة الجماهير، فلست أعرف في هذه القضية إلا المحلفين. إن النيابة نفسها، بينما تقول أن هؤلاء الإحدى عشر

شخصاً قد اختفوا، تقرر أن من المستحيل عليها أن تقول كيف اختفوا، ومتى، ولماذا وأين اختفوا؟ فلنرجع إلى المادة ١١٥ من القانون المدني وما بعدها؛ فتبعا للقانون، أن من الخطر اعتبار الغيبة نهائية لشخص مفقود إلا بعد مضى فترة طويلة؛ فلنفرض أن لاندرو نفسه مات، هنا لن يسمح لعائلاتهن باعتبارهن متوفيات قبل ثمانية عشر عاما (هكذا في المرافعة)

"واجب أن يعارض عائلات المفقودات إذا طلبوا ذلك. هذا الواجب سيكون من نصيب الأفوكاتو العمومي نفسه. نفس الرجل الذي كان يطلب الآن فقط بكل ما يملكه من الفصاحة أن ترسلوا لاندرو إلى المقصلة لأنه قتل هؤلاء النسوة. سيكون على الأفوكاتو العمومي أن يقول عندئذ: (لقد أعلنت أمام محكمة جنايات فرساي أن مدام باسكال قد قتلت، ولكن القانون يلزمني أن أقول لكم أنها ليست متوفاة، إنها على قيد الحياة)..

"إن القانون المدني يعلن أن أية شهادة ليست بكافية لاعتبار هؤلاء النسوة متوفيات والذين شرعوا هذا القانون كانوا يعلمون أن الحياة شديدة التعقيد بحيث يكون من الحمق أن تجعل من مفاجآتها نظريات مقبولة أو غير مقبولة.. كانوا يعلمون كم يجوز أن تكون المصادفة هي القناع الأليم للخطأ، ومع ذلك فالاحتمال الذي يقبله القانون عند وجود نزاع على بضعة مليمات، هو نفس الاحتمال الذي يسألكم الأفوكاتو العمومي أن تعتبروه عندما تكون رأس رجل في كافة الميزان.. فهل علينا أن نقدر للمتاع ثمنا أغلى من الحياة؟

"القانون صريح في هذه النقطة.. الشخص المفقود ليس ميتا، والموت لا يتقرر إلا عند وجود جثة، وقد أعلن القنصل في أثناء تحضير القانون المدني أن الغائب ليس ميتا. ومع ذلك فأنك أنت يا خصمي العزيز.. أنت يا ممثل النيابة الذي ستقول أن هؤلاء الضحايا المزعومين ليسوا متوفين.. ستحرم على هؤلاء الوالدين أن يستلموا شيئا من بضع مئات الفرنكات والأمتعة المتروكة.. إنك أنت الذي تجئ فتتراجع من أجل قرار مناقض للقانون عندما يختص الأمر برأس آدمي، لا ببعض الأمتعة البالية"

***

وفي اليوم التالي أخذ الأستاذ دومورو جيا فيري يفحص شهادة الخبراء فقال:

"بدلا من أن تكتشفوا الجثث تأتون إلينا بتقارير الخبراء الذين هم آفة العدالة الذي يتهددها"

أعطى الأستاذ عدة أمثلة لأخطاء قضائية جسيمة وقعت بسبب شهادة الخبراء، ولم تكتشف هذه الأخطاء إلا بعد فوات الوقت؛ ففي خلال موقعه فردان في الحرب العظمى الماضية مثلا حكم بالإعدام على جندي فرنسي اتهم بأنه جرح نفسه تهربا من الخدمة في الميدان، واتضح بعد تنفيذ الحكم وتشريح الجثة أن هذا التعيس كان فعلا قد أصيب برصاصة ألمانية، وهنا قال:

"وهكذا بسبب خطأ من طبيب. يسقط أحد الأبطال كشخص جبان"

"وفي سان مالو في أحد أيام سنة ١٩٠٩ وجد على الشاطئ هيكل عظمي. ولما استدعى طبيب محلي قال أنها جثة فتاة صغيرة يحتمل أن تكون هوجمت وقطعت بحد مبراة. وبعد يومين تقدم رسام اسمه إيميه مورو وقرر أن الجثة هي جثة قرد شمبانزي كان قد رماها في النهر "إن الخبراء في هذه القضية لم يفحصوا قطع العظام فحسب، ولكنهم حللوا الرماد أيضاً. واستطاع أحدهم أن يقول إن هذا الرماد يحتوي على ٥٠% من الفوسفات بينما النسبة العادية هي عشر هذه النسبة. ليس الصحيح أن تركيب الرماد يتوقف بالضرورة على المادة المحترقة؛ فالرماد المتساقط من فروع الأشجار يحتوي على ٩% إلى ٣٨% من مادة الفوسفات. فهل بحث الخبراء عما إذا كان لاندرو قد أحرق خشبا.. لا، ومع ذلك فإنه فعل"

وتكلم بعد ذلك عن آراء الخبراء في العظام المكتشفة فقال إنه يرفض أن تكون طبيعة هذه العظام طالما أنها لن تكتشف في الوقت الذي يجب أن تكتشف فيه. وانتقد التحقيقات التي أجريت في جامبيه؛ فأولا في ١٣ أبريل سنة ١٩١٩ فتش المسيو دوتل قوميسير البوليس الفيلا ولم يجد شيئا، وبعد ستة عشر يوما أي في ٢٩ أبريل اكتشف الرماد الذي يحتوي على العظام الآدمية وأثبتت في المحضر وجمعت.. وفي خلال هذه الفترة كانت الفيلا مفتوحة لكل من أراد أن يدخل وقال: "لم توضع الأختام فوق الفيلا يوم ١٣ كما كان الواجب أن توضع، ومع ذلك فقد وجدت في ٢٩ أبريل أختام مكسورة كانت قد وضعت في ٢٥... إن صداقتي لك يا خصمي العزيز تلزمني بأن أقرر أنك لا تستطيع أن تدين لاندرو على أساس هذه التقارير لأنها بنيت على مخالفات للقانون، ولا أزيد"

وانتقل الأستاذ إلى مناقشة التقارير فقال إن لاندرو لم يكن عنده وقت لإحراق إحدى عشرة جثة، وضرب أمثلة مشابهة لجرائم أحرقت فيها الجثث فقال:

"إن كرارا أخذ أربعا وعشرين ساعة ليحرق جثة الغلام لدى قتله. وقال مسيو جيار الذي كان مربى ولي عهد روسيا وهو يتحدث عن مصرع العائلة المالكة الروسية، أن الصلبان التي شدوا إليها أغرقت بأكثر من مائة جالون بنزين، واستغرق إحراق الخشب أكثر من ثلاثة أيام حتى تلاشت نهائيا. وفي قضية "بل" أحرق الأستاذ بروناردل جثة في فرن مشابه لفرن لاندرو في أربع عشرة ساعة حتى اختفت..)

"فما بقى من قضية لنيابة .. يبقى هذا...

"إنه إذا كان هؤلاء النسوة أحياء فإنهن يجئن، ولهذا فإن المطلوب منكم أن تقرروا أنهن توفين، وأن تقبلوا كدليل على إجرام لاندرو أنه وجدت في حياته الأوراق المثبتة لشخصياتهن.

"لماذا لم تتكلم النساء المفقودات.. لأن كلا منهن اعتمدت بلا شك على الأخرى لإنقاذ لاندرو ولم تشأ أن تتحمل المسئولية وتعاني سخرية الناس

"صدقوني. لو أن لاندرو قتل هؤلاء النسوة، لما وجدتم في حيازته هذه الوثائق التي ليست بها أدنى قيمة والتي تظلله بالشبهات. فإذا كان قد قتلهن

واحتفظ مع ذلك بهذه الأوراق فإنه يكون مجنونا، فإذا لم يكن مجنونا فإنه ليس قاتلا"

وناقش المحامي بمنتهى العنف شهادة جيران الفيلا عن الدخان الكثيف المتصاعد من المدخنة، والروائح الكريهة وحكاياتهم عن أخلاق لاندرو الغامضة وزائريه المشبوهين، وقال إن هذا كله ليس سوى ابتكار خيالي وثرثرة أهل القرية التي لا يجب أن تؤخذ مأخذا جدياً. وقدم مثلا لقصاب في جامييه شهد بأنه رأى من فوق جدار الفيلا في مساء ١٩ يناير ١٨٩٨ وكانت ليلة غائمة كثيرة الضباب حزمة غامقة اللون وشم رائحة لحم يحترق. قال المحامي أن التقويم الذي في يده يقول أن الجو في هذا اليوم كان صحوا وكان القمر بدرا في تمام استدارته.

وقال إن هذه الشهادة وأمثالها لا يصح أن يعتد بها، وانتقل إلى الشهود الصامتين وهم العظام والمذكرة فقال: "إن أساس اكتشاف العظام أمر مشكوك فيه ولا يصح أن تكون هذه العظام دليلا ضد المتهم الذي احتج في جميع أدوار القضية على تفتيش مسكنه بالطريقة التي تم بها التفتيش "فماذا من أمر المذكرة.."

"إن تفسيرها الخيالي خلق من مخيلة النيابة اعتقادا، ولكنه لا يثبت شيئاً، بل قد يثبت العكس إذا وضعناها في مجموعها موضع الاعتبار، فبينما النيابة لا تقدم دليلا ماديا، ولا شهود يشهدون بأن هؤلاء الأحد عشر شخصا قد قتلوا، فأية نظرية إذن يمكن أن تكون أساسا للزعيم بموتهم.. فهل قتلوا

إغراقا في الماء.. كلا. فقد نزحت جميع البرك أو هل قتلوا إحراقا بالنار.. كلا، لأن الفحم الذي كان عند لاندرو لا يكفي لإهلاك كل هذا العدد حرقا، كما لم يكن عنده الوقت الكافي لذلك؟

"فماذا إذن.. لماذا لا نضع افتراضا أبسط فنقول إن هؤلاء النسوة اللاتي قطعن تقريبا كل صلاتهن العائلية، قد اختفين بمحض إرادتهن وذهبن ليضربن في أعماق أمريكا

"دعوني أسألكم يا حضرات المحلفين.. ألم تتعودوا رؤية رجل سيء السلوك في حيازته مجموعة من الأوراق الخاصة بنساء.. إني أعرف أمثاله، ودعوني أهمس لكم بكلمة واحدة.. إن أوراق النساء هي ترسانة التاجر في اللحم البشري وليست ترسانة القاتل.. يبدو لي أن لاندرو مشترك في عمل غامض دعوني أحدده في كلمة حوشية صريحة.. المتاجر في النساء"

وبعد أن أفاض في هذه النقطة ختم مرافعته بهذه العبارات القوية المؤثرة:–

"إني أتوسل إليكم ألا تقدموا على ارتكاب خطأ يستحيل إحلاله.. لقد أتممت واجبي، وبقي عليكم أن تحكموا. غدا. ربما تعود إحدى هؤلاء النساء، وعندئذ أي إيمان في قلوبكم من القوة بحيث يمكنكم من أن تواجهوا النظرة المتحجرة التي يحدق بها فيكم الشبح الذي سوف يأثر إليكم بالليل قائلا– (إني لم أقتل. لقد قتلتموني أنتم.. لا تفعلوا هذا، فإذا وجد

شخص ما يوما ما على هامش قراركم هذا بالإعدام، وكانوا مخطئين فإن هذا شيء أجزع لمجرد تصوره)

هكذا انتهى المحامي الكبير من مرافعته، ولسنا نزعم أننا بهذا التلخيص قد استطعنا أن نخلق الجو الساحر الذي خلقته عباراته البليغة وصوته العميق الكلمة المخفية (لقد حكموا المؤثر وإلقاءه المتين، لقد قيل فيه أنه لم يكن محاميا يترافع، بل كان ساحرا يرتل التعاويذ وينشر السحر بعصا.

وبعد ذلك سأل الرئيس لاندرو إذا كان عنده ما يزيده دفاعا عن نفسه، فوقف لاندرو وقال:-

"عندي بيان واحد. لقد خلع الأفوكاتو العمومي علي في مرافعته عدة خطايا ورذائل وجرائم ولكنه تفضل -وأشكره على ذلك - فقال أنه بقي لي إحساس نبيل واحد هو عطفي على أسرتي وحبي لأطفالي وبيتي الذي هو أساس العائلة والمجتمع، وإني باسم هذا الإحساس أعلن أني لم أقتل أحداً أبداً"

هنا كان الظلام قد بدأ يتسلل من الأبواب والنوافذ، وأمست قاعدة المحكمة أشبع بناد ليلي رخيص منه بدار العدالة. وكانت كتل عظيمة من الجماهير تنتظر في الخارج، وزاد في ذلك اليوم عدد تصريحات الدخول زيادة كبيرة على عدد المقاعد، وتزاحم حاملو هذه التصريحات - وكان أغلبهم من السيدات من جميع الطبقات - في حين ما وجدوا موضعا لقدم،

وكانت بعض الممثلات الأنيقات الصغيرات يحتللن كثيرا من المقاعد المختصة لمندوبي الصحف. وكان في الخارج سيدات مستعدات لدفع ثمن إلى الحراس ليدعوهن يدخلن. رشونهم وتوسلن إليهم بلا جدوى. وعندما رأى لاندرو بكاء النسوة تمتم قائلا:

– إذا كانت إحدى أولئك السيدات تود أن تأخذ مكاني فإني أقدمه إليها راضيا.

وكان النظارة داخل القاعة قد جاءوا يحملون معهم رزما من الشطير والفواكه، وأجهزة حرارة القهوة. وزجاجات الكونياك والروم. وتسلقت بعض السيدات ضلف النوافذ وجلس بعضهن على الحواجز الخشبية.

وانسحب المحلفون في الساعة السابعة والنصف. ولم يعودوا إلا في الساعة التاسعة. وخرج الكثيرون من النظارة ليستنشقوا هواء نقياً في فترة الانتظار الطويلة.

كان الناس يأكلون بشهية، ويتناقشون في الحكم المنتظر بحرارة. وفي أكثر أنحاء القاعة كان من المستحيل على أي إنسان أن يتحرك لشدة الزحام، وأغمي على بعض السيدات بتأثير الحر الشديد فكن يرتمين على ظهورهن حتى ينتعشن. وأخذ رجل يقلد أذان الديك من قبيل المرح وإحداث الضوضاء، وأقام المصورون مصباحا كهربائيا قويا موجها باشره إلى المقعد الذي سوف يعود لاندرو إلى الجلوس عليه عند النطق بالحكم. وأخيرا دق

جرس يعلن عودة هيئة المحلفين. وحاول النظارة أن يتقدموا إلى الأمام، ووقف بعضهم مكان الآخرين وهم يصيحون محتجين: اجلس.. اجلس.

ودل وجه الأستاذ دومورو جيا فيرى – وكان شديد العبوس– على الحكم المتوقع.

أمر الرئيس بإدخال المتهم. فزاد صياح الجماهير، وحاول الرئيس أن يعيد النظام، وسمع صوت وهو يؤنب الناس قائلا:

– إن صياح الجمهور هكذا عار، وجبن.. ألستم تحملون في قلوبكم ذرة من الشعور..

واحتج الأفوكاتو العمومي أيضاً بكل قوة وكرر قوله:

– ألستم تدركون أن رجلاً على وشك أن يحكم عليه بالإعدام.

فتوسل لاندرو ألا يزيلوا ذقنه فقد كانت هي فخره العظيم. وعندما دخل لاندرو إلى القاعة أسرع إليه محاميه العظيم وقال له هامسا:

– تشجَّع.. إن النتيجة سيئة.. سيئة جداً.

– اطمئن يا أستاذ، لقد أعددت نفسي لسماع حكم الإعدام.

وصدر قرار المحلفين – بأغلبية الآراء – بإدانة المتهم في جميع التهم.

صاح الناس عندما وقف لاندرو صيحات الدهشة. ولكن وجهه ظل ينم على الهدوء.

كان قد هزل خلال المحاكمة الطويلة واصفر لونه، وكان منظره يشبه طيرا جارحا منهوك القوى ولكن لم تبد على وجهه علامة واحدة على الأسف أو على الجزع.

وقام الأستاذان لوجاس وسيركوف عن المدعين بالحق المدني يطلبان فرنكا واحد مع الأمر بإعادة أمتعة وأثاثات المجني عليهن إلى الورثة.

وبينما كان الرئيس ومساعداه يتداولون، بدأ الرجل المحكوم عليه كأن حملاً ثقيلاً انزاح من فوق رأسه، وكان يتكلم مع محاميه بمرح، بل لقد شوهد يبتسم.. وسمع يقول لأحد محاميه الأستاذ دي تروي:

– إليك الحكم يا أستاذي العزيز.. ثلاث سنوات من العمل ضاعت هباء. ومع ذلك ثق بأني سأنام الليلة أحسن من كل ليلة مضت..

وهذه السنوات الثلاث التي يشير إليها هي المدة التي مضت من تاريخ القبض عليه حتى انتهاء المحاكمة، وفي خلالها كان الأستاذ دوتري هو الذي ينسق القضية ويهيئ الدفاع.. ونظر لاندرو إلى محاميه الرئيسي الأستاذ دومورو جيافيرى بابتسامة خفيفة، وكان المحامي قد غلبه الحزن والأسى لهذه النتيجة، فشجعه لاندرو قائلاً:

– إني حزين لأجلك.. أهو المتهم الذي يعزي محاميه..

وجهد الأفوكاتو العمومي احتجاجه مرة أخرى ضد صياح الجماهير، وكأن أحداً لم يلتفت إليه.

وفي أثناء ذلك شوهد الأستاذ دومورو جيافيرى يسحب ورقة ويخط فيها التماسا بالرحمة. وذهب إلى المحلفين يسألهم التوقيع عليها، وهذا هو نص الالتماس:

"هيئة محلفي سين أتواز الموقعين على هذا، الذين أصدروا ضد لاندرو حكما بالإدانة بدون ظروف مخففة، يلتمسون ألا ينفذ فيه حكم الإعدام، ويستعطفون رحمة رئيس الجمهورية"

وافق المحلفون ووقعوا. ورأى الناس هذا فتهامسوا قائلين أن لاندرو نجا من الموت لأن رئيس الجمهورية نادرا ما يرفض التماسا بالرحمة يرفع إليه من هيئة المحلفين.

وانتقل المحامي الكبير إلى محاميي المدعين بالحق المدني وطلب إليهما أن يرجوا شقيقة مدام باسكال في أن توقع هي أيضاً، فانفجرت السيدة باكية، ولكنهم أقنعوها فأضافت اسمها إلى قائمة المحلفين.

وبعد ذلك نطق رئيس المحكمة بحكم الإعدام بالصيغة المعتادة، وهي أن يقاد لاندرو إلى ميدان عام وهناك تقطع رأسه، كما حكم بطلبات المدعين بالحق المدني.

ونقل لاندرو إلى سجنه الانفرادي. وهناك ذهب إليه محاميه ومعه التماس الرأفة ليوقع عليه ولكنه أجاب.

– إني أوقع على التماس بالاستئناف لا بالرحمة. لست أطلب رحمة ولا شفقة.

وعند ما نظر إليه محاميه ووجهه يفيض بالأسى، تفرس فيه بشجاعة وقال:

– سأنام الليلة هادئاً، كما كنت أنام في الليالي الخوالي.. وزاره ولداه في السجن مرتين.

وكان سلوك النظارة في المحكمة فضيحة أثيرت في مجلس الشيوخ الفرنسي أعلن شدة اشمئزازه منها. وكان من نتيجة هذا أن تعدلت بعض إجراءات القانون، فمثلا منع المصورون من الدخول إلى قاعات المحاكم لالتقاط مناظر منها.

تضخم بريد لاندرو في السجن وكانت بعض الخطابات المرسلة إليه في السجن فيها حملات شديدة عليه، فكانت إدارة السجن تحجزها عنه ولا تطلعه عليها. أما باقي الرسائل فكانت مفعمة بالعطف وأرسلت إليه سيدات وفتيات هدايا من الشكولاتة والفطائر والحلوى.

كانت الأيام تطوى بسرعة، ولم يبق إلا أمل واحد هو رحمة رئيس الجمهورية[1] وكان على لاندرو أن يرفع إليه التماسه، ولكن تمنع أول الأمر ثم عاد فقبل تحت الحاح محاميه قائلاً:

– إني أفعل هذا فقط لأجل خاطرك.

توالت على دور البوليس بلاغات مزيفة عن ظهور بعض النساء المختفيات، فمثلا ورد إلى محامي لاندرو خطاب بإمضاء فيكتور فيجورو يقول أنه كان قد رأى شخصاً يحمل عظاماً من أحد البيوت وينقلها إلى الفيلا، فأجرى حول هذا الخطاب تحقيق واسع وتحريات كثيرة انتهت بالفشل وظهر أن مراسل الخطاب ليس إلا مازحا. وجاء خطاب غفل من الإمضاء من مدينة مونتربال في أمريكا يقول: إن مدام هيون وهي إحدى الضحايا دفنت هناك، ثم اتضح أنها ليست هي المرأة المقصودة.

وفي أواخر شهر فبراير سنة ١٩٢٢ ذهب الأستاذ أنافيير دي تروي ودومورو جيافيرى محاميا لاندرو فقابلا رئيس الجمهورية وبقيا معه أكثر من نصف ساعة، وعندما خرجا من عنده تحدثا إلى الصحفيين آملين. وقالا إن المسيو ملليران بدا عليه أنه تاجر. ولكن بعد ظهر اليوم التالي أعلن أن الالتماس رفض.

---

[1] كان رئيس الجمهورية الفرنسية في ذلك لوقت هو المسيو ملليران الذي عاد بعد ذلك محاميا ثم رئيسا للوزارة. وقد جاء إلى مصر مرتين للمرافعة أمام محكمة الاستئناف المختلطة. في قضية شركة مصر الجديدة وفي قضية شركة قنال السويس.

لم يبق للاندرو أن ينتظر طويلاً ففي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي كانت فرق من جنود المشاة والفرسان والبوليس يحتلون مراكزهم في ميدان محاكم فرساي، وتدفق الناس إلى المدينة من كل حدب وصوب حتى من بلدان بعيدة مثل نيس لكي يشاهدوا المنظر الأخير من المأساة. وواصلت السيارات وصولها في المساء، واستأجرت نساء كثيرات غرفا في البيوت المطلة على الميدان وظللن هناك ينتظرن حلول الساعة.

ولكن في هذه الليلة لم يكن الناس ليتسامح معهم فقد أزاحهم البوليس بعيداً وأمر السيارات بالابتعاد، وهاجم البيوت المطلة على الميدان فأخرج منها الغرباء حتى ولو كانوا نياما في أسرتهم، إذ كانوا يوقظونهم ويأمرونهم باللبس والرحيل، ولم يسمح لأحد من الأجانب بالحضور سوى رجال الصحافة. وكذلك أزالت فرق البوليس الجماهير المتجمعة أمام باب السجن، ثم سرعان ما وصلت أجزاء المقصلة وأقامها العمال على بعد أقدام من باب السجن.

وبين الساعة الخامسة والسادسة تجمع رجال الإدارة والمحامون لزيارته الزيارة المعتادة الأخيرة، ولم يكن غائبا عن هذا الجمع إلا رجل واحد هو الأفوكاتو العمومي إذ اعتذر عن الحضور وأناب المسيو بجان، وكان محاميا لاندرو في انتظاره ليقفا إلى جانبه حتى آخر لحظة.

نظر إليهم لاندرو عند دخوله فأدرك معنى هذا (الموت) أنبأه المسيو بجان نائب الأفوكاتو العمومي أن التماسه قد رفضه رئيس الجمهورية وقال له: تشجع. فأجاب لاندرو:

– إني متجلد.

وسأله قسيسان حاضران عما إذا كان يود أن يعترف

فصاح لاندرو غاضبا:

– أبداً (ثم أضاف): لا داعي لأن أجعل هؤلاء الأفاضل ينتظرون.

وسأله المستر بجان إذا كان عنده ما يقوله، فقد كان المأمول حتى آخر لحظة أن يعترف. فطلب إليه لاندرو أن يكرر السؤال فلما كرره حدق فيه وسكت قليلاً قم قال للمحيطين:

– هذا السيد يقدم إلي ولست أعرف من هو ..

وعندئذ قدموه إليه فصاح لاندرو غاضبا:

– سيدي. إنها إهانة أن توجه إليّ هذا السؤال، ليس عندي ما أقول.

والتفت إلى الأستاذ دودورو جبافيرى ثم إلى زميله الأستاذ دي بتروي وقال لهما بحرارة:

– يا أستاذ.. أشكرك. لقد استمتم في عمل يائس.. حسناً ليست هذه أول مرة يحكم فيها على رجل بريء.. إني مستعد أيها السادة.

وهنا اتخذوا آخر إجراء فقدموا له سيجارة وزجاجة من الروم، ولكن لم يلمس هذه وتلك وانطلق الجلاد يقيده فسأله ألا يشد عليه القيد. ثم بدأوا يزيلون ذقنه، فتوسل إليهم ألا يفعلوا فاكتفوا بإزاحتها جانبا.. لقد كانت ذقنه حتى في اللحظات الأخيرة فخره العظيم.. ثم مزقت ياقة قميصه لتصير الرقبة عارية.

ومشى بين اثنين يعاونانه ويصحبه الأستاذ دومورو جيافيري والقسيس، واقتيد في الفناء إلى البوابة المقوسة، وكانت المقصلة مقامة في الجانب الآخر، فارتعد لاندرو من برد الصباح، وسمع يهمس لنفسه:

- سأكون شجاعا.. سأكون شجاعاً.

والتفت لآخر مرة إلى محاميه وكرر له عبارة شكره ثم وضعت رأسه في الفجوة المعدة لها، وارتفعت سن المقصلة، ثم هوت.

بعد أيام قليلة نشرت صحيفة الماتان خطابا كان لأندرو قد كتبه إلى الأفوكاتو العمومي قبل إعدامه مباشرة وسلم إليه بعد التنفيذ. كان خطابا يلوح أنه فكر فيه كثيراً، وحاول به أن ينتقم من ممثل النيابة بأن يزرع في ذهنه بذرة الشك فيما إذا كان لاندرو مذنبا أو بريئاً، فبعد أن هنأه على مواهبه وناقش المحاكمة، قال أنه لمح أول علامات الشك تنبث في رأس الأفوكاتو العمومي عندما كان يعطي إجاباته الحاسمة أثناء المحاكمة، وكان يراقب هذا الشك وهو ينمو يوما فيوما ثم قال فيه:

"لماذا لم تستطع أن تواجه نظرتي وأنا أحدق فيك عندما جيء بي إلى القاعة لسماع الحكم؟.. لماذا أنبت الجماهير على سلوكها الشائن.. ولماذا لا تزال إلى اليوم تبحث عن النساء المختفيات إذا كنت واثقا من إنني قتلتهن؟.. لقد انتهى يا سيدي كل شيء، وصدر الحكم.. كنت أنا هادئا، وكنت أنت جزعا. فهل هناك ضمير يقلق القضاة الشاكين، كالضمير الذي يقلق المجرمين؟.. وداعا يا سيدي، إن تاريخ كل منا سيطويه الغد بلا شك. إني أموت هادئ الضمير، وأتمنى لك بكل احترام أن تنال نفس النعيم"

جريمة الدكتور جون وبستر

الأستاذ بجامعة هارفارد

كان الأستاذ جون وبستر يشغل وظيفة أستاذ الكيمياء والتاريخ الطبيعي في جامعة هارفارد بأمريكا، وهي من أعرق جامعات العالم، وكان دكتورا في الطب، وله مؤلفات علمية عديدة، كما كان عضوا ورئيسا في عدة جمعيات علمية. وكان الفرع الذي يرأسه في كلية الطب يشغل جناحا يصح أن يقتل فيه أي إنسان ويدفن معه سر مقتله، وكانت تحت يده من الأدوات والمواد ووسائل العلم ما يمكن أن تحلل به أعضاء أية جثة واختفى نهائياً بدون ترك أثر، كأن صاحبه لم يخلق في الوجود. ومع ذلك، ومع أن سمعة هذا الأستاذ العلمية ومركزه الاجتماعي جعلاه رجلا لا يعقل أن تحوم حوله الشبهة في الظروف العادية، فإن عدة قرائن جعلت تتجمع وتتكاتف حتى تشكلت في قالب تهمة وضعته موضع المتهم بقتل زميل له هو الدكتور باركمان إذ وجدت جثة هذا الأخير ممزقة ومقطعة الأوصال، بعضها في غرفة الأستاذ وبستر وبعضها في معمله.

كان القتيل (الدكتور جورج باركمان) رب عائلة مشهورة ويمتلك عقارات ذات قيمة كبيرة في بوسطن، وكانت له مميزات جسمية ملفتة للنظر إذ كان طويلا نحيلا وفكه الأسفل عريضاً بشكل غير مألوف كما كان مملوءًا بنشاط عصبي لا يتناسب مع رجل ضارب في الستين من عمره.

والغريب أن القتيل والمتهم كانا صديقين من زمان طويل بحيث أن الدكتور باركمان قدم لصديقه الدكتور وبستر عدة خدمات مالية أنقذته من الخراب بعد أن أضاع تركة أبيه واستغرق في ديون كثيرة.

وتطورت هذه العلاقة المالية بين الاثنين، وعلى ضخامة الدين فإن الدكتور وبستر لم يسدد لدائنه إلا جزءا ضئيلا جدا، وأخذ يراوغ في التسديد ودائنة يلاحقه من مكان إلى مكان. وقال مرة لبعض الناس إن الدكتور وبسر ليس رجلا نزيها ولا مستقيما، ووصلت هذه الكلمات إلى مسامع الدكتور وبستر. وبعد يومين ذهب إليه الدكتور باركمان في عملية بكلية الطب وسأله باقتضاب: "هل أنت مستعد لي الليلة؟".

وأجاب وبستر بالنفي. ثم جرى بينهما حديث يشبه المشادة خرج باركمان على أثره وهو يصيح:

- يا دكتور! غدا يجب أن نضع حدا.

ولكن في اليوم التالي لم يضع حدا.

وفي صباح يوم الجمعة (٢٣ نوفمبر) ذهب الأستاذ وبستر إلى الدكتور باركمان في منزله، وتحدث معه في سداد الدين وتواعدا على اللقاء في الكلية في الساعة الواحدة والنصف من نفس اليوم.

وفي الساعة الثانية عشرة (عند الظهر) خرج الدكتور باركمان من منزله، ولم يخبر أحدا من أهل المنزل إلا أنه على موعد مع شخص ما في الساعة

الواحدة والنصف. أما من هذا الشخص؟.. وأين مكان اللقاء؟.. فلم يكن قد أخبر بهما أحدا، ولم يعد الدكتور باركمان إلى بيته بعد ذلك.

قلقت أسرته، وفي اليوم التالي أجريت أبحاث واسعة النطاق ووزعت ألوف النشرات بأوصافه وأعلنت وعود بالمكافأة لمن يعطي معلومات عن المفقود، وفتش كل مكان في النهر وفتشت بيوت عديدة، وكذلك فتشت كلية الطب، ولكن تفتيش الكلية كان تفتيشاً سطحياً أجري استكمالا للشكليات؛ فلم يكن أحد يتوقع حتى هذا الوقت أن يكون الدكتور باركمان هناك، كما لم يكن يوجد ما يدعو إلى الاشتباه في الأستاذ وبستر. وعندما دخل رجال البوليس إلى الجناح الخاص به في الكلية استقبلهم بمنتهى الأدب ولم يبد عليه أدنى اضطراب.

وفي اليوم الثالث لاختفاء الدكتور باركمان – أي في يوم الأحد – طرق الدكتور وبستر بيت فرنسيس باركمان– شقيق المفقود– وقال أنه سمع باختفاء صديقه، وقد قرأ في الصحف أمس أن هناك بحثاً عن الشخص الذي كان على موعد مع المفقود يوم الجمعة وأنه هو ذلك الشخص، وقال أيضاً أنه في مقابلته للدكتور باركمان سلمه مبلغ ٤٨٣ دولارا، وأنه – أي بركمان– كان في حالة عصبية ظاهرة، وأنه عندما كلمه في شطب الرهن أجاب بسرعة قائلا: "سأرى" واندفع خارجا من الكلية.

وشهد فرنسيس باركمان في المحكمة بأن الأستاذ وبستر كان هادئا ولم يظهر عليه أي اضطراب أو تأثر. وبالاختصار كانت تصرفات وبستر طول الوقت بين الناس جميعاً وفي كل الظروف يبدو عليها الهدوء وضبط النفس.

وزار رجال البوليس والنيابة كلية الطب بعد ذلك مرتين متتاليتين استيفاءً لبعض نقط التحقيق ولم يلاحظوا شيئا غير عادي عند وبستر.

في هذا الظلام الحالك الذي خيَّم فوق هذه الجريمة، كان هناك رجل واحد تيقظت شكوكه ضد وبستر. وذلك الرجل هو (إفرايم لتلفيلد) ملاحظة الكلية الذي يعيش مع زوجته فيها، وكان من عمله أن ينظم الغرف والأدوات ويوقد النار في الأفران لإجراء التجارب ويطفئها بعد المحاضرات إلى غير ذلك من الأعمال.

كان لتلفيلد موجودا عندما وقعت بين الأستاذ وبستر وبين الدكتور باركمان المشادة التي أشرنا إليها. وفي يوم الخميس السابق ليوم اختفاء المفقود، طلب منه الأستاذ وبستر أن يأتيه من المستشفى بكمية من الدم لاستعمالها في محاضرة الغد، وفي صباح الجمعة وجد لتلفليد مطرقة خلف باب الغرفة الخاصة بالأستاذ فحملها إلى المعمل ولم يرها بعد ذلك ولو أنه بحث عنها.

وفي يوم الجمعة كان لتلفيلد واقفا أمام باب الكلية في الساعة الثانية إلا ربعاً، وشاهد الدكتور باركمان من بعيد مقبلا إلى ناحية الكلية وهو يمشي

بسرعة كالعادة ولكنه لم يشاهده يدخل إلى الكلية لأنه كان قد ذهب إلى غرفته ليستريح.

وعندما بدأ يباشر مهمته بعد الساعة الثانية والنصف مساء ذهب إلى معمل الدكتور وبستر، ولكنه وجد الباب مغلقا بالمزلاج من الداخل، وهو أمر غير عادي بالمرة، وسمع حركات وبستر في داخل المعمل، ووجد أيضاً باب غرفة محاضراته مغلقا فانصرف إلى أعمال أخرى.

وفي الساعة الرابعة والنصف عاد وحاول فتح الأبواب، ولكنها كانت لا تزال مغلقة، وفي الساعة الخامسة والنصف شاهد الأستاذ وبستر ينزل من الدرج الخلفي وفي يده قنديل أطفأه وخرج من الكلية، وفي الساعة العاشرة مساءً عندما كان يتجول جولته الأخيرة لاحظ أن الأبواب ما زالت مغلقة.

وفي اليوم التالي – السبت– جاء الأستاذ وبستر إلى الكلية في الساعة الحادية عشرة صباحا منفردا، وفي هذا اليوم كان لتلفيلد قد سمع طبعا بنبأ اختفاء الدكتور باركمان.

وفي مساء الأحد كان يتحادث مع صديق له، في شارع قريب من الكلية، ثم أقبل عليه الأستاذ وبستر وسأله عن آخر مرة رأى فيها الدكتور باركمان فأجاب بأنه رآه في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الجمعة مقبلا نحو الكلية. فقال وبستر:

- هذا هو نفس الوقت الذي دفعت له فيه ٤٨٣ دولارا

ثم أخذ يروي بلا مناسبة تفاصيل إعطائه هذا المبلغ، وكان اصفرار وجه الدكتور وبستر واضطرابه مما ترك في نفس لتلفيلد أثرا. في هذه اللحظة زحف الشك إلى صدر لتلفيلد. وفي المساء أخبر امرأته بعزمه على مراقبة جميع خطوات وبستر، وتوسلت إليه ألا يفعل شيئا ضد رجل يستطيع بكلمة واحدة أن يطرده ويقطع رزقهما. ولكنه طمأنهما ووعدها بأنه سوف يتصرف بمنتهى الحذر.

وفي يومي الاثنين والثلاثاء لم يسمح له وبستر بتنظيم غرفته أو إشعال النار في أفرانها وأبقى أبوابها مغلقة. وجاء رجال البوليس كما قلنا وألقوا نظرات هنا وهناك، ولكن لتلفيلد لم ينطق بكلمة ولم يقل لأحد شيئا مما يساوره من الشكوك.

وكان الأسبوع كله عطلة لمناسبة عيد الشكر. ولكن وبستر كان دائم التردد على معمله.

ولشدة دهشة لتفيلد منحه وبستر (ديكا روميا) لمناسبة العيد. وقد علق في المحكمة على هذا قائلا:

– وإنها لظاهرة تستلفت النظر أن يخرج الأستاذ وبستر مليما من ماله..

وفي صباح الأربعاء كان لتفيلد ينظر من ثقوب المفاتيح ومن أسفل الأبواب، وكل ما استطاع أن يراه هو أن وبستر كان يتحرك في أنحاء الغرفة من جهة إلى جهة أخرى ومن زاوية إلى زاوية.

وبعد ظهر هذا اليوم، شعر لتفيلد بحرارة شديدة تنبعث من حائط السلم الذي يقع في ظهر المعمل. وفهم أنها منبعثة من فرن كان يعلم أنه لم يستعمل مطلقا قبل ذلك. وبعد ذلك خرج وبستر ،حاول لتفيلد فتح الأبواب، ولما عجز تسلق ظهر النافذة وحاول الدخول منها فلم يستطع أيضاً، ولدى نزوله لاحظ وجود بعض بقع متناثرة على سلم المعمل، ولما وضع إصبعه على أحداها ثم تذوق الطعم وجد أنها محلول كربوني.

أخيرا فكر لتفيلد ثم حزم أمره على أن يدخل إلى المعمل بأية طريقة كانت، وهداه تفكيره إلى ثقب الحائط. وهكذا بدأ يعمل بعد ظهر يوم الخميس، وأوقف زوجته على بعد لتعطيه إشارة عند قدوم أحد، واستمر يعمل يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي أثناء عمله جاء رجال البوليس فأطلعهم على ظنونه ونياته وقال أنه سينتهي من ثقب الحائط بعد قليل..

وانتهى أخيراً، ثم أمسك بمصباح وأطل من داخل الثقب على المغسل الموجود في المعمل. فلم يلبث أن ارتد فزعا من هول ما رأى. إذ شاهد بقايا جثة أدمية وقطعتين من ساقيه فهرول ليخبر باستكشافه.

بعد قليل جاء رجال النيابة والبوليس، ثم صدر الأمر إلى ثلاثة من الضباط بالقبض على وبستر.

استقل الضباط الثلاثة عربة إلى بيت وبستر، ولما وصلوا وجدوه عند السلم الخارجي يشيع ضيفا، فأخبره أحدهم أنهم جاءوا إليه لأنهم يرغبون في تفتيش الكلية ثانيا في حضوره؛ فوافق في الحال ولبس حذائه وقبعته ومعطفه

وذهب معهم.. وفي الطريق جرى حديث بينه وبينهم حول الجثة، فأخذ هو يحدثهم عن آخر مقابلاته وعن دفع ٤٨٣ دولارا إليه.

وفجأة لاحظ وبستر إن العربة لا تسير في الطريق الموصل إلى الكلية، فأجابه الضابط قائلا: "لا تهتم.. إن الحوذي غشيم".. وبعد قليل وقفت العربة أمام باب السجن وأمروه بالنزول؛ فنزل في الحال ودخل الجميع إلى السجن. وبعد لحظة ذهول قال وبستر:

- ما معنى كل هذا؟..

فأجاب أحد الضباط قائلا:

- يا دكتور، لقد أمضينا طول هذا الوقت نبحث عن جثة الدكتور باركمان، ولن نبحث عنه بعد ذلك وأنت الآن في السجن بتهمة قتله.

نطق وبستر ببعض كلمات غير مفهومة، طلب أن يرسل نبأ لأسرته ولكنهم نصحوه بأن يتريث حتى الصباح. تركوه في حراسة أحد الضباط فسأله وبستر:

- هل عثروا على باركمان؟

فرجاه الضابط ألا يسأل عن شيء، ولكنه لم يستطع ضبط نفسه طويلا. وأخذ يقول:

- يمكنك أن تقول لي شيئاً عن الموضوع. أين وجدوه؟.. هل وجدوا كل الجثة؟.. لماذا اشتبهوا في الطفل.. آه يا أطفالي.. ماذا سيصنعون؟.. ماذا سيظنون في؟.. من أين أتوا بالمعلومات؟

سأله الضابط:

- هل هناك أحد على اتصال بغرفتك الخاصة؟..

فأجاب:

- لا أحد سوى الملاحظ الذي يشعل النار.. آه.. هذا الشقي.. إني رجل هالك.

وأخذ يذرع المكان ذهابا وجيئة وهو يضرب كفا بكف، ثم دس يده في جيبه وأخرج شيئاً وضعه في فمه ولكن الضابط الذي كان يراقبه أدركه وقبض عليه بقوة. واتضح أنه تناول بعض الأستركتين قاصدا الانتحار. إلا أن الكمية لم تكن كافية لقتله، وإن تكن قد جعلته غير قادر على الوقوف. ثم وضعوه في الحبس الانفرادي حتى لا يعاود المحاولة. وبعد نحو ساعة قرر البوليس نقله إلى الكلية فرفعوه فوق نقالة وكان طوال الوقت يبكي ويذكر أسرته.

وفي الكلية فتحوا باب المغسل، وأخرجوا بقايا الجثة وكذلك العظام الآدمية التي وجدت في الفرن وتركت لفحص آخر. وحوالي منتصف الليل أعادوا المتهم إلى السجن، وفي الطريق خرج عن صمته وقال:

- لماذا لم يسألوا لتفيلد.. ماذا ستقول أسرتي عن غيبتي؟

ونام طول الليل بلا حركة. وفي الصباح استطاع أن يجلس على كرسي وعاد إلى تمالك أعصابه، وقال لضابط السجن:

– إنها ليست جثة باركمان.. إني أصدق أنها جثتي أنا قبل أن أصدق أنها جثته كيف جاءت إلى هناك؟.. لا أدري، إني كرهت دائماً لتفيلد هذا، وقد عارضت بقدر استطاعتي في تعيينه في الكلية.

وفي اليوم التالي جيء بخبراء من الأطباء ليعاونوا البوليس في أبحاثه، وكانت مهمة هؤلاء الأطباء عسيرة شاقة لأنهم كانوا زملاء وأصدقاء للمتهم والقتيل. فحصوا الرماد الذي في الفرن وعثروا فيه على بقايا عظام وطاقم أسنان. وعثروا في وعاء كبير داخل المغسل على فخذ آدمية وجذع الكلية ومطواة كبيرة. ولكنهم لم يجدوا نقطة واحدة من الدم. إلا أن البقع التي وجدت على السلم اتضح أنها مصبوغة بنترات النحاس.

أما بقايا الجثة التي وجدت فقد قال الأطباء أنها لرجل من سن باركمان وبنيانه الجثماني. غير أنه لم يكن أحد ليستطيع الحزم بأنها متكاملة.. ولكن كانت هناك الأسنان الصناعية التي كانت مفتاح اللغز للنيابة إذ تعرف عليها الدكتور (كيب) طبيب الأسنان الذي كان قد باشر علاج الدكتور باركمان وصنعها له قبل افتتاح كلية الطب. واختلف الأطباء في سبب الوفاة، ولو أنهم رجحوا احتمال حصول القتل بواسطة سكين إلا أنه مما أضعف ذلك الترجيح أنه كان يجب في تلك الحالة وجود كمية كبيرة من الدم، وهم لم يكتشفوا فقطة واحدة، ولكن من جهة أخرى يقوي هذا الترجيح وجود نترات النحاس

التي قد يمكن أن تكون استعملت في إزالة الدم. وقال بعض الأطباء أيضاً إن تقطيع الجثة يدل على أن الفاعل له بعض الدراية بالتشريح.

بتجميع هذه القرائن استطاعت النيابة أن تصور الجريمة بأنها ارتكبت بتدبير غاية في الهدوء. وبهدوء مماثل حاول القاتل، التخلص من الجثة؛ فالمعروف أنه بتسخين البوتاس بنار شديدة يمكن تحليل اللحم والعظام وتحويلها إلى سائل ولكن ببطء شديد يحتاج إلى وقت غير قليل للتخلص من الجثة كلها. ولهذا حاول القاتل أن يلقي ببعض الأجزاء إلى الفرن. ولا شك أنه لو اتسع له الوقت لأمكنه التخلص من الجثة كلها كأن صاحبها لم يوجد أبدا، ولما بقي منها شيء يدل على أن جريمة قتل ارتكبت ولا حتى نقطة دم واحدة.

وبعد أيام قلائل من القبض على المتهم كتب خطابا من السجن إلى إحدى بناته بقوله (أخبري ماما بألا تفتح الرزمة التي أعطيتها أخيرا، ولتحتفظ بها كما تسلمتها)

صودر هذا الخطاب وذهب رجال البوليس إلى بيته وضبطوا الرزمة فوجدت محتوية على الإيصالات التي كان قد حررها اعترافا بالدين للقتيل بين سنتي ١٨٤٢ و١٨٤٧.

وأخيرا كتب تقرير الاتهام وقدم الأستاذ وبستر إلى المحاكمة وتولى النائب العام المستر كليفورد المرافعة ضد المتهم. وتولى الدفاع عنه اثنان من أشهر المحامين الأمريكيين وهما الأستاذان: إدوارد سوهير، وبليني مريك،

وامتدت المحاكمة اثنى عشر يوما وقعت في خلالها حوادث مثيرة ومشاهد مؤثرة خصوصا عندما كان زملاء القتيل والمتهم يدلون بشهادتهم.

وإنصافا للحقيقة نقول إن مرافعة النيابة كانت تقاد بمهارة ونزاهة مأثورتين، وأثارت حول المتهم كتلا سوداء كثيفة من الشبهات. وكان من السهل إثبات الباعث على الجريمة والغرض منها.

وكان إفرايم لتفيلد هو شاهد الإثبات الرئيسي، ولم يرتبك أمام حملة الأسئلة والاستجوابات العنيفة التي وجهها إليه الدفاع.

ومن الإنصاف أيضاً أن نقرر أن مركز المتهم كان منهارا. وكان موقف الدفاع عنه في غاية الدقة وكانت الرسائل التي في يد المحاميين ضعيفة جداً. ولكن قارئ هذه القضية لا يسعه أن يخفي انبهاره للبراعة المعجزة التي تبدت في مرافعة محاميي المتهم اللذين نفخا في بصيص الأمل الضئيل فجعلا منه نارا وهاجة من المؤكد أنها أدفأت قلب المتهم وقلوب زوجته وبناته وأصدقائه، ولو لفترة من الزمن..

إلا أن نقطة الضعف الوحيدة التي أظنها أساءت إلى براعة الدفاع – بل أساءت أيضاً إلى مركز المتهم – أن الأستاذ مريك، وكان آخر المترافعين كان يتذبذب بين أسس عديدة بنى عليها دفاعه. وكل أساس من هذه الأسس يكاد ينقص الآخر، فلم تكن مرافعته نقطا مسلسلة لأساس واحد، ولكنها كانت أسسا مختلفة غير متكاملة ولا متجانسة. فمثلا بدأ الأستاذ بليني مريك يثبت أن الدكتور باركمان حي يرزق وأن الجثة التي وجدت ليست له. وهذا في

الواقع هو أقوى سند للدفاع لأنه مؤيد بشهادة وآراء كثيرين من الشهود وبعض مشاهير الأطباء. ولكن الأستاذ قفز إلى أساس ثان فقال إنه إذا كانت الجثة هي جثة باركمان فإن الأستاذ وبستر لم يقتله ولكنه قتله لتفيلد... ثم انتقل إلى أساس ثالث فقال إن باركمان إذا كان قد قتل خارج الكلية فإنه نقل إليها نكاية في وبستر. ثم انتقل أخيرا إلى أساس رابع فقال أنه إذا كان باركمان قد قتل داحل الكلية وبيد الأستاذ وبستر فإن القتل يكون قد تم في ظروف لا يصح أن تكون عن تعمد أو مسبوقة بإصرار.

قام النائب العمومي فترافع مرافعة طويلة بليغة مؤثرة، ولسنا بحاجة إلى ترديد الأدلة التي ساقها لدعم الاتهام فقد فضلنا الإشارة إليها من القرائن المادية ومن شهادة الشهود ومن بعض أقوال ندت عن المتهم، ونوجز هذه المرافعة في الآتي:-

كانت النقطتان الرئيستان اللتان دارت عليهما المرافعة هما:

أولا- أنه ثبت أن الدكتور باركمان دخل إلى الكلية قبيل الساعة الثانية، وبعد هذا لم يره أحد. وإن النيابة قد تحرت بكل وسيلة في جميع أنحاء المدينة عن شخص واحد يكون قد رآه بعد خروجه من الكلية ولكن دون جدوى. والنائب يشير هنا إلى شهود النفي الذين سيقولون أنهم شاهدوه إنما هم شهود مصطنعون وقال أيضاً أن السلطات لم تقصر في واجبها بحثا وراء المفقود إذ فتشوا النهر والبيوت وكل ناحية في المدينة ولم يعثروا له على أثر واحد.

ثم انتقل النائب إلى أجزاء الجثة التي وجدت في غرفة وبستر، وقرر الأطباء الخبراء أنهم يرجحون أنها تشابه في مجموعها جسم باركمان وسنه، هذا ولو أنه كان ينقص الجثة: الرأس والساقان واليدان.

وقال إن مما يؤيد أن الجثة هي جثة باركمان عثورهم على طقم الأسنان وشهادة الدكتور كيب طبيب الأسنان بأنه صنع الطقم للدكتور باركمان وأن الفك العريض الأسفل الذي كان يميز القتيل يذكره تماما بذلك. ثم قال أخيرا إن الاختصاصيين قرروا أن الجثة قطعت بواسطة يد ذات مهارة وعلم بالتشريح وأن يكون صاحبها غير اختصاصي في فن التشريح.

على هذه الأركان استند النائب العام في إثبات أن الجثة الممزقة هي جثة المفقود.

ثانيا– ثم انتقل إلى إثبات التهمة على المتهم فقال (فإذا اقتنعتم أيها السادة بأن الدكتور باركمان قتل وأن هذه هي جثته فإنه يبقى السؤال الكبير الخطير: هل قتله المتهم؟..

وأخذ يرد على هذا السؤال ببراعة تخلب اللب، ويورد الأدلة بنظام عجيب لا يخرج عما أوردناه الآن في رواية التفاصيل. ثم اختتم مرافعته البليغة بخاتمه مؤثرة قال فيها:

"وإني أيها السادة أقول بكل إخلاص أني أتمنى أن يكون المتهم قادرا على أن يفسر كل هذه القرائن تفسيرا للمصلحة بحيث يقنعكم ويقنع العالم

المتمدين أنه على قدر ضغط هذه القرائن عليه فإنه قادر على أن يبعدها عنه ويبرأ منها ويقف نظيفا في ضوء النهار الساطع، فإذا نجح في ذلك يا حضرات المحلفين، فلا أظن أن إنسانا سيكون أكثر امتنانا ولا غبطة مني، وأنا واثق أنكم عندئذ ستشاركونني اغتباطي"

وسمع المحلفون بعد ذلك شهود الإثبات، وكان الشاهد الرئيسي هو إفرايم ألتفيلد وطبيب الأسنان ومجموعة من الأطباء الاختصاصيين وشهود آخرين.

ثم وقف المحامي الأستاذ دوارد سوهيير فعالج بإفاضة بحثا قانونيا يقارن بين القتل العمد والقتل بأقدار. وانتقل إلى بحث قانوني آخر في تقرير الاتهام.

وتكلم في القاعدة المشهورة (الشك في مصلحة المتهم) وأثبت أن هذه القاعدة إنما هي حق للمتهم وليست صدقة من الشرع، فيجب أن تمحى الفكرة التي تقول أن هذه القاعدة عبارة عن قنطرة يعبر فوقها المجرمون من العقاب. وانتقل إلى الكلام في شهادة الشهود فقال:

"الشهادة نوعان: شهادة الرؤية وهي شهادة المباشرة، وشهادة الظروف والقرائن. فأما شهادة الرؤية فليس لها وجود في هذه القضية إذ لا يوجد من يشهد بأنه رأى المتهم يقتل. أما شهادة الظروف والقرائن فإنها توجد حيث تكون هناك حقيقة مرغوب في إثباتها ولم يرها أحد ولم يعرفها أحد. ولكن من إثبات ظروف وحقائق أخرى يمكن استخراج الحقيقة الكبرى.

"ومن هنا ترون أيها السادة أن هناك فرقا كبيراً بين قوة شهادة الرؤية وبين شهادة الظروف والقرائن. خذوا مثلا قضية الشهادة فيها شهادة الظروف والقرائن. يتكون الدليل في مثل هذه القضية من حقائق عدة. وكل حقيقة منا يجب أن تثبت ثبوتا قاطعا لا يداخله شك. وهنا تقع الأخطاء "وجد شخص في الطريق قتيلا. جاء رجل يشهد بأنه رأى شبحا يعدو ويدخل منزلا. وآخر يشهد بأنه دخل المنزل الذي أشاروا له عليه فقبض على رجل يلهث. وثالث يشهد بأنه وجد بقعا من الدم على ملابس المقبوض عليه.

"خذوا الشاهد الأول، قد يكون هذا الشاهد مخطئا. فمن شاهده يعدو. أو في المنزل الذي يقول أنه رآه بلجأ إليه. وقد يكون شاهدا كاذبا .. فهناك ثلاث فرص للخطأ.

"الشاهد الثاني. قد يكون مخطئا في الرجل الذي قبض عليه، أو في المنزل الذي ظن انه أشير له عليه. أو يكون شاهدا كاذبا .. فهناك أيضاً ثلاث فرص للخطأ.

"الشاهد الثالث. قد يكون مخطئا في تمييز الدم من غيره. أو في تمييز ملابس المتهم من غيرها أو قد يكون شاهدا كاذبا..

"هذه مجموعة احتمالات للخطأ في قضية بسيطة؛ فقد يكون الرجل الذي شوهد يعدو هو القاتل. وقد لا يكون. أليس من الجائز أنه قد فر فزعا عند رؤية الحادث؟

"أليس من الجائز أن يكون صديقا للمجني عليه وقد فر خوفا من الاعتداء؟

"فإذا قارنا هذه القضية بقضيتنا فلا ريب أنه سيدهشكم ضخامة العدد الذي تقع به الأخطاء. إن القانون يحتم أن كل قرينة تستخرج منها نتيجة، يجب أن تثبت ثبوتا لا يحتمل أي شك، وبالتالي إذا كانت هناك سلسلة من القرائن تعلق القضية، ثم ضاعت أو انكسرت حلقة من هذه السلسلة، فإن الاتهام كله ينهار.

"يكون شهود النيابة سلسلة طويلة من أدلة القرائن، هي السلسلة التي حاولوا أن يغللوا بها المتهم ويسحقوه.

"هذه السلسلة تتكون من قسمين كبيرين: أولهما أن الدكتور باركمان قتل، وثانيهما أن الأستاذ جون وبستر هو الذي قتله. هذان هما القسمان الكبيران، وكل قسم منهما ينقسم إلى أجزاء كثيرة، وكل جزء إلى نقاط عديدة.. فكيف تؤيد النيابة قضيتها؟.. يقولون أن جورج باركمان قتل، وكيف يثبتون ذلك؟ – بعدة قرائن توصل كلها إلى نهاية واحدة هي أن الدكتور باركمان كان في كلية الطب ولم يخرج منها – هذا هو القسم الأول..

"ويقولون أيضا أن الأستاذ وبستر هو القاتل – وكيف؟ لأنه آخر من رآه.. فإذا كان لم يقتله، فالنيابة لا تعرف من الذي قتله.. فالآن نفترض أنه خرج من الكلية – إذا انكسرت هذه الحلقة فإن السلسلة كلها تتفكك وتنتهى القضية. خذوا جزءا من القضية، يقولون أنهم يثبتون وحدة أجزاء الجثة

– وكيف ذلك؟ السبب الرئيسي عندهم هو طقم الأسنان الذي وجد في الفرن وعليه علامات – فإذا ثبت أن يصح وجود الأسنان لآخر وأن العلامات غير مميزة، فهنا أيضاً نهاية القضية.

"النقاط الكبرى التي يجب أن نوجه إليها اهتمام حضرات المحلفين هي:

١– إن كل قرينة تعتمد عليها النيابة يجب أن تثبت فوق كل شك.

٢– إن كل قرينة يجب أن تؤكد اتهام وبستر.

٣– إن أي قرينة لا يجب أن تحتمل أي فرض آخر غير هذا الغرض.

فما هي خطة دفاع أي رجل بهم بأدلة عبارة عن شهادة القرائن؟

أولا– إنه ينفي هذه القرائن.. بنفيها بشهود من المواطنين المحترمين الذين يشهدون بأن القرائن التي تستند عليها النيابة ليست، ولا يمكن أن تكون، فوق كل شك.

ثانيا– ويثبت أيضاً هذه القرائن يحتمل أن تدل على فروض أخرى قد تكون في مصلحة المتهم.

"وأنتقل أخيرا لأبسط بكل اختصار وبوجه عام النقط الرئيسية التي سترتكز عليها شهادة شهودنا. لسنا ننوي أن نقدم شهودا يشهدون مباشرة

بأي الوسائل جاءت بقايا الجثة إلى معمل الدكتور وبستر. إن وبستر ما زال على موقفه. إنه لا يعرف شيئا عن هذا. إنها بقايا جثة رجل. إن المتهم يقف كما لو كنتم تقفون إذا وجدت مثل هذه البقايا تحت أساس منازلكم أو محال أعمالكم أو في أي مكان لكم.

"فالشهود الذين نقدمهم يشهدون بالآتي:-

وبستر يقف متهما هنا بارتكاب عمل وحشي فظيع، ولهذا سنعرض لكم أخلاقه وسمعته.

"إن القانون يا حضرات المحلفين لا يعطي نفس الأهمية لأخلاق المتهم وسمعته إذا كان يوجد شهود رؤية ضده. وذلك بعكس الحال في القضايا الغامضة المشكوك فيها وحيث تعتمد النيابة على القرائن فقط.

"ضحيت يقف رجل كهذا الرجل، متهما بشهادة القرائن في قضية مشكوك فيها، بارتكاب جريمة بشعة. يجب أن يعطى المقام الأول للسلوك والأخلاق والسمعة. وهذا بعكس ما إذا اتهم رجل بجريمة قتل ووجد ضده الدليل المادي وشهادة الرؤية فإن من العبث هنا إثبات أنه كان فيما سبق رجلا ذا أخلاق مستقيمة وسمعة طيب.

"ولكن إذا جئتم إلى قضية مشكوك فيها – قضية قرائن – فيجب الاهتمام الكلي بالأخلاق ويكون من حق المتهم أن يضع تحت نظر مواطنيه أخلاقه وسمعته التي اكتسبها وشادها طوال حياته.

"وبستر متهم بارتكاب عمل من أعمال القوة في جريمة وحشية وردا على هذا الاتهام سأقدم شهودا يشهدون بأخلاقه حتى تحكموا أن كان هذا الرجل يستطيع ارتكاب ذلك العمل أو تلك الجريمة.

"وكذلك سيثبت شهودنا كيف كان سلوكه، وكيف قضى وقته بين أسرته وبين الناس في الفترة التي تلت اختفاء باركمان إلى يوم القبض عليه.

"سنقدم كذلك شهودا يشهدون بأنهم رأوا الدكتور باركمان في يوم الجمعة خارج الكلية بعد الوقت الذي قيل أنه قتل فيه، وسنكون مخطئين إذا لم نقدم دليلا على أنه خرج من الكلية.

"قد لا يكون هذا مهما في إثبات ما إذا كانت تلك الجثة أم لا. ولكنه مهم لتروا إذا كان وبستر وهو الذي قتله، أو قتله غيره.

"فالحقائق التي سنخرج بها من شهودنا هي ما يأتي:

١- عن أخلاق المتهم: الأستاذ وبستر رجل وهب حياته لدراسة الكيمياء وخدمة العلم. وهو رجل ذو تصرفات عصبية في بعض الأحيان، ولكنه مع ذلك مسالم إلى أقصى حد وغير مؤذ في عاداته وفي سلوكه. ولا يجب الالتفات إلى عصبيته فقد يكون أحيانا عصبي المزاج ولكن بدون أن يعتمد على استخدام القوة أو يعتدي على أحد أو يريق دم واحد، بل أنه بطبيعته جبان، وهو فيما يختص بمعاملاته ليس رجلاً شريراً، بل قد يعتبر عكس ذلك. وليس جديدا عليه أن يغلق المعمل على نفسه ليالي وأياما.

وليس جديدا عليه أن يبعد عنه ملاحظ لكلية أو أي شخص آخر في الوقت الذي يجري فيه تجاربه.

٢- عن خروج باركمان، وستسمعون من شهودنا أن الدكتور باركمان قد خرج من الكلية وأن كثيرين من المواطنين شاهدوه في مواعيد مختلفة، وفي أماكن مختلفة بعد الساعة الثانية التي قبل بحدوث القتل فيها. وستسمعون أيضاً إن الدكتور وبستر خرج من الكلية في ساعة مبكرة من بعد الظهر يوم الجمعة وليس في ساعة متأخرة.

٣- وستسمعون أيضاً كيف أمضى وبستر بقية الأسبوع، ستسمعون أنه كان في منزله كل يوم في مواعيد الغداء وفي وقت الشاي وفي العشاء، وإنه له مسحة تدل على أنه وقع له حادث ما.

٤- وستسمعون أيضاً آراء بعض مشاهير الأطباء الذين فحصوا الجثة. ستسمعونهم يقولون لكم إن الجثة التي وجدت لا يمكن أن تكون جثة الدكتور باركمان، وأن اليد التي مزقتها يد جاهلة لا يمكن أن يكون لدى صاحبها أقل إلمام بفن التشريح"

واستعرضت المحكمة بعد هذه المرافعة شهود النفي؛ فشهد بوداعة وحسن أخلاقه بعض أعضاء في مجلس الشيوخ وقضاة وأطباء وأساتذة في كلية الطب ومدير الجامعة وقساوسة ومحافظ المدينة السابق والمحافظ الحالي وضباط في الجيش وغيرهم من رجال المال والأعمال.

ثم شهد كثيرون ومنهم زوج لمتهم وبناته الثلاث اللاتي كن يبكين طول الوقت بأنه كان يقضي أغلب أوقاته في المنزل وأنه كان في حالة هادئة، ولم يبد عليه أن أمرا طارئاً حدث له.

وشهد آخرون بأنهم رأوا الدكتور باركمان بعد الساعة المزعوم حصول القتل فيها في أماكن مختلفة من المدينة وفي أوقات مختلفة.

وأخيرا شهد بعض الأطباء المشهورين بأن أجزاء الجثة لا يمكن أن تكون للدكتور باركمان وأن تقطيعها يدل على أن اليد التي مقتها تجهل كل الجهل مبادئ علم التشريح.

وفي اليوم العاشر للقضية، قام الأستاذ بليني مريك فترافع مرافعة طويلة استغرقت يومين كاملين، ونكتفي بما علقنا به على المرافعات قبل البدء في تلخيصها، ونورد فيما يلي ختامها المؤثر حيث قال تعليقا على شهود النفي الذين قالوا أنهم رأوا الدكتور باركمان بعد الوقت الذي يقال بحدوث الجريمة فيه:

"يا حضرات المحلفين.

"هؤلاء الشهود المحترمون من المواطنين. كيف جاءوا إلى هنا؟

"تأملوا في مركز المتهم.. رجل وحيد في سجنه المظلم. وليست له عائلة ذات نفوذ تستطيع أن تعاونه. كل عائلته هي تلك الأسرة المنكوبة الطالع المكونة من زوجة وثلاث فتيات.

"مع ذلك فقد ظهر هؤلاء فجأة عند ما سمعوا بتفصيل التهمة واسترجعوا ذاكرهم، فاستطعنا نحن أن نكشف هذه الأدلة ونحضرها هنا أمامكم.

"هؤلاء الشهود لهم أبصار تستطيع أن تقرر بأنهم رأوا باركمان خارج الكلية فمن ذا الذي يستطيع أن يقول أنهم ليسوا صادقين.. قد يقال أنهم أخطأوا النظر وقد يكونون فعلاً مخطئين. ولكن هل أنتم واثقون من أنهم مخطئون.. مخطئون إلى حد أنكم تجسرون على أن تلمسوا دم هذا الرجل بسوء.

"يا حضرات المحلفين إنه حكم القانون في حالات الشك حيث تشابك شهادات الشهود وتتعقد بحيث يعسر استخراج النتائج السليمة من هذه الكتلة المظلمة من أدلة الشبهات نجد تبرئة المتهم.

"إن المتهم يرجوكم أن تزنوا هذا كله، وهو لا يطلب منكم أكثر من أن تكون ضمائركم حرة في نهاية أيام هذه القضية، وأن تزنوا جميع اعتراضاته على شهود النيابة، وأن تخرجوه في النهاية إلى النور والحياة مرة ثانية. أن تعيدوه إلى بيته المتواضع الذي لا يمكن لأحد أن يصف الأحزان التي تغرقه"

تداول المحلفون ثلاث ساعات ثم دخلوا فأعلنوا قرارهم بإدانة المتهم.

وفي اليوم التالي نطق الرئيس بالحكم الآتي:

"إن المحكمة قررت بأنك يا جون وبستر تنتقل من هذا المكان وتحبس في سجن منفرد إلى أن تنقل بعد ذلك إلى مكان التنفيذ وهناك تشنق من رقبتك حتى تموت. عسى الله أن يطهر روحك ويرحمك"

لعل كثيرين من القراء يرون هذا الحكم جائرا. كذلك كان يعتقد محامياه وزوجه وبناته. ولذلك سعوا سعياً حاراً في استصدار قرار بالعفو عنه من رئيس الجمهورية ولكنهم فوجئوا بمن ينبئهم استدعى قسيسا واعترف له بجريمته. وعند هذا الاعتراف فقد صدقت وبناته بأنه كان قاتلاً، ومما قاله في اعترافه

"دعوت باركمان ليقابلني في الكلية، ولم يكن في نيتي أن أسدد له بل كنت أنوي أن أرجوه في التأجيل ولكنه تلفظ بألفاظ شديدة ومهينة؛ فاستولت عليَّ موجة غضب هائلة وضربته بعصا ثقيلة"

ثم أنكر حصول القتل مع سبق الإصرار قائلا: "لم يكن في نيتي ذلك، والله يشهد"

وبعد أن تقرر مصيره، تجرد من خطاياه، وبعث في طلب لتلفيلد وامرأته واعتذر لهما لظلمه إياهما.

وقال: "كل ما قلته حقيقي إنك تكذب في شيء"

قضية لاما يراي ومرافعة الأستاذ لاشو

في أوائل أغسطس سنة ١٨٦٧ روعت مقاطعة بارتناي بنبأ وفاة بيير تكسييه الثري المعروف المحبوب من الجميع، وتضاعفت دهشة الناس عندما تسامعوا بنبأ القبض على أرملة أخيه مدام تكسييه، وخادمته القديمة الأرمنية فرانسوازر يشار، ومسيو شارلو والد مدام تكسييه، بتهمة تسميم بيير تكسييه

كان بيير تكسييه رجلا أعزب يبلغ الثالثة والخمسين، ويعيش منعزلا وحده في أملاكه بجهة لاما يراي، وكانت تقوم على خدمته منذ سنين خادم أمينة هي فرانسواز ريسار التي أضافت إلى خدمة المنزل مهمة العناية بصحته إذا اعتلت. وكان في عزلته لا يكاد يستقبل أحدا سوى مدام تكسييه أرملة أخيه وطفلتيها بنتي أخيه اللتين أحبهما وكانتا تكونان أسرته الوحيدة.

وفي شهر يوليو اشتدت عليه أزمة المرض إذ كان مصابا بداء النقرس منذ سنوات، فاستدعى طبيبه الدكتور جان الطبيب الشرعي الذي نال شهرة واسعة على أثر قضية تسمم اكتشفت في نفس السنة.

اشتد المرض على بيير تكسييه فأسرعت أرملة أخيه إليه حيث أقامت في قصر لاما يراي مع طفلتيها وخدمها لتقوم على العناية بالمريض ولتؤنس

وحدته الموحشة. أخذ المريض يدخل في دور الخطر ابتداء من أول أغسطس وابتدأ يتقيأ قيئا استلفت نظر الدكتور جان وأقلقه وجعله يعتقد أن المريض قد تسمم، فاستعان بزميله الدكتور لودان. وفي اليوم السابق على وفاة المريض كتب الاثنان إلى النائب العمومي البلاغ التالي: (إن بيير تكسييه على شفا الموت، ويظهر أن حالته ناتجة من تعاطي مادة سامة، ونعتقد أن علينا أن نبلغكم عن هذه الظروف فإن الخطر محقق)

وبمجرد وصول هذا الخطاب قام النائب العمومي وقاضي التحقيق فورا إلى قصر لاما يراي، واستجوبا المريض أولا. وتتلخص أقواله في أن الدكتور جان هو الذي أوصله إلى هذه الحالة بأدويته، ثم مات بعد ساعات..

قاما بعد ذلك باستجواب مدام تكسييه. ثم الخادم فرانسواز ثم المسيو شارلو والد السيدة وكان قد جاء إلى القصر ليعود المريض وليزور ابنته. وبعد الاستجواب تقرر القبض على هؤلاء الثلاثة وسيقوا إلى السجن.

وكانت تهمة مدام تكسييه أنها سممت أخا زوجها لتضمن لطفلتيها ميراث عمهما الذي كان ليضيع منهما لو أنه تزوج، واتهم الاثنان الآخران بالاشتراك في ارتكاب الجريمة.

وعين بعض الخبراء للبحث عن السم وتحليله؛ فشرحوا الجثة وحللوا البول والبراز، وأنتج التشريح والتحليل أن بيير تكسييه مات مسموما بالزرنيخ.. أما المتهمة الأولى مدام تكسييه فكانت مصرة على أنها بريئة، وقالت أن أخا زوجها إذا كان قد مات مسموما فإن يد طبيبه الدكتور جان هي

اليد الآثمة إذا أعطاه شربة كان قد أحضرها معه في حقيبته وكان ذلك في أول أغسطس. وأضافت أن حالة المريض بدأت تسوء منذ ذلك اليوم. وأنكر المتهمان الآخران ما نسب إليهما، وقدم الثلاثة إلى محكمة الجنايات التي ازدحمت قاعتها بجماهير غفيرة، كما ازدحمت ساحتها وأبهاؤها بالذين تجمعوا في الخارج وحالت بينهم وبين القاعة قوات البوليس الكبيرة. وتولى الأستاذ جاست الأفوكاتو العمومي تمثيل النيابة وكان قد حاز شهرة واسعة بمرافعة بليغة في قضية سابقة اسمها قضية الأميراند.

وتولى المحامي العظيم الأستاذ لاشو الدفاع عن المتهمة الأولى مدام تكسييه، وتولى الأستاذ ريكار الدفاع عن أبيها المسيو شارلو، وتولى الأستاذ توديير الدفاع عن الخادمة فرانسواز وتلى قرار الاتهام، وسنلخصه فيما يأتي للقراء:

توفي المسيو تكسييه في ١١ أغسطس سنة ١٨٦٧ بعد أن عانى طويلا، وكانت طبيعة مرضه الغريبة، وسلوك الأشخاص الذين حوله مما ولد في نفس أطبائه شبهة أنه تعاطى سما، ورأوا أن من واجبهم أن يبلغوا النيابة. وفي ٩ أغسطس، على أثر هذا التبليغ أسرع المحققون فاستجوبوا المريض الذي كان يسلم الروح، واستطاعوا أن يفهموا من مجموع الأقوال والقرائن ما يؤكد الشبهة. وأسفرت التحريات التي أجريت بعد الوفاة عن جريمة كبيرة باعثها الطمع وقعت في لاما يراي

"كان بيير تكسييه يبلغ الثالثة والخمسين، صحيح الجسم قوي البناء، وكان يعاني أحيانا أزمات داء النقرس.

ولكن هذا المرض لم يغير من حالته الصحية العامة. وفي خلال شهر مايو وقع تحت تأثير نوبة جديدة لدائه. وفي بدء شهر يوليو ظهرت عليه لأول مرة أعراض إسهال شديد. وكان يشكو من أنه يحس كأن ثقلا لا يمكن تفسيره يرسخ فوق معدته كما كان يشكو ظمأ حادا. ثم ابتدأ يتقيأ. وظهرت علامات أخرى لا تتصل بدائه الأصلي بسبب. ولم يلبث حتى أخذ يهزل ويضعف على أثر ما كان يرفض طعام أو شراب. وفي شهر أغسطس اشتدت الحالة سوءا وتكررت مرات القيء، وتكونت قرحة في حنجرته حتى البلعوم، وكان يزدرد بمنتهى المشقة. وظهرت في البصاق خيوط دموية كريهة، ثم قضي أخيرا بعد أن قاسى عذابا مرا مدة تزيد على شهر.

"وقد أمر المحققون بعد الوفاة مباشرة بتشريح الجثة، وأثبتوا حصول الوفاة بالتسمم كما أثبت التحليل أن السم كان زرنيخا. أما هذه الحقائق لم يكن الشك ممكنا، ليس فقط في أن الجريمة ارتكبت، ولكن أيضا في أن دس السم دبر بحذق شديد وبانتظام يومي تقريبا بطريقة تودي بالضحية إلى القبر رويدا رويدا..

"لم يكن ممكنا أن يظل الفاعلون مجهولين وأن تظل الشبهات هائمة في الضلال. والشخصان الوحيدان اللذان كانا بجوار المجني عليه هما

الخادمة فرانسواز ريشا وأرملة أخيه. فهما وحدهما اللتان كانتا تجهزان له طعامه وشرابه وقدمناه إليه.

"هذه الظروف التي اعترفت بها المتهمتان، علم بها المحققون في يوم ٩ أغسطس عند انتقالهم إلى لاما يراي على أثر تبليغ الطبيبين وسرعان ما تبين أن فرانسواز ريشا والأرملة تكسييه قد ساعدتا في ارتكاب الجريمة التي كان مستحيلا تنفيذها بغير مشاركتها.

"كان المجني عليه بيير تكسييه أعزب يملك في لاما يراي ثروة عقارية تقدر بنا يزيد على ثلاثمائة ألف فرنكا. وكان له أخ هو أوجست الذي تزوج بالأنسة أنورين شارلز، ثم توفي بعد سنوات تاركا لها طفلتين.

"أصبحت مدام أوجست تكسييه أرمل. ونشأت بينها وبين أخي زوجها بعض منازعات بشأن تصفية تركة زوجها، ولكنهما لم يلبثا أت تصافيا، وكانت هي تأتي إلى لاما يراي في فترات متباعدة لزيارته.

"وكانت الطفلتان هما وارثتي عمهما بيير تكسييه، ولكن الإرث كان بعيد الأجل نظرا إلى سلامة صحته.

"في الحقيقة أن أخلاق مسيو تكسييه لم تكن تخلو من الشذوذ، وكان يصرح بكراهته للزواج، ولو تزوجت أرملة أخيه فأنه كان عليها أن تخشى من أنه قد لا يتردد في أن يوصي بما يملك إلى بعض أقربائه خصوصا أبناء عمه اللذين كان يحتفظ معهم بعلاقات حسنة.

"تحت هذه العقيدة ذهبت في ٢ يوليو إلى لاما يراي لزيارة أخي زوجها الذي كانت أزمة مرضه قد هاجمته من جديد. فأمضت معه الليل ثم تركته في صباح ٣ يوليو.

"وفي اليوم التالي ٤ يوليو استدعى المريض الدكتور جان ليفحصه فوجد عنده إسهالا حادا وآلاما في المعدة.

"تركت مدام تكسييه شقيق زوجها في عناية خادمته فرانسواز ريشا وحدها. ولكنها عادت في ١٥ يوليو إلى لاما يراي. وفي هذه المرة، على خلاف العادة، أقامت في القصر مع خدمها وابنتيها ومربيتهما كأنما كانت تتنبأ بأن المرض سيطول ويشتد، ومنذ هذه الفترة زادت حالة المريض سوءا. وفي ١٦ يوليو قرر الدكتور جان سوء الحالة التي صحبتها أعراض عجز عن تبين أسبابها خصوصا أعراض احتراق الحلق والإحساس بثقل شديد فوق المعدة.

"تقدم المرض بسرعة. وفي ليلة أول أغسطس ظهرت أزمة حادة جدا. وفي اليوم كان الطبيب قد قرر إعطاءه شربة تناولها في الصباح وانتهت بقيء شديد استمر جزءا كبير من النهار. وفي المساء قللت اليد المجرمة التي كانت – كما أثبت التشريح – تقدم له السم يوميا بكميات صغيرة، قللت هذه اليد من كمية السم المعتادة حرصا وتحرزا. وفي الليل وقع المسكين فريسة لآلام شديدة جدا، وتابع القيء، وكانت شهقاته (الزغطة) تسمع في جميع أنحاء القصر.

"أصداء هذه الآلام التي كانت تتجاوب في البيت كله، أنشأت عند مدام تكسييه شعورا هائلا. وفي منتصف الليل استدعت خادمة لها اسمها جوزفين بروسار وأخبرتها بأنها مريضة جدا، وكان العرق يغرقها وفي حالة عصبية أعجزتها عن السيطرة على نفسها وقالت لها:

– لم أعد أستطيع أن أطمئن على الحالة التي يعانيها أخو زوجي المسكين، فلست أرى بارقة أمل. وها أنا ذا أفقد أيضا معونة كبرى، وسن أبي لا تسمح له بالاعتماد عليه..

"وفي الصباح المبكر أرسلت مدام تكسييه تطلب أباها فرانسو شارلو الذي كان في مقاطعة مجاورة، وفي أثناء المرض كان يعالج المريض الطبيب جان أولا ثم الدكتور لودان الذي رغب إليه الدكتور جان في أن ينضم إليه.

"وكانا يعودانه في زيارات طويلة ولكن طبيعة تلك الأمراض الغريبة المتتابعة غلبت كل علاج لهما. ولكي يستطيعا أن يراقبا الحالة جيدا ويكتشفا خفاياها، أمرا بأن يحتفظ لهما ببعض قيء المريض لفحصه وشاركهما المريض نفسه هذه الرغبة. ولكن مدام تكسييه والخادمة فرانسواز ظلت إلى آخر لحظة تأبيان تنفيذ هذه الرغبة إلا بعد ملاحظات قاسية ففي ٢٧ يوليو أمر الدكتور لودان متشددا بالاحتفاظ بالقيء وأعاد الكرة في ٢٩ ولكنهما احتجتا بالنسيان. وفي بعض المرات كانتا تقدمان قليلا من البصاق بكميات لا يمكن استخراج نتيجة منها فاحتج بشدة على هذا التصرف وفي أول أغسطس كرر أمره ولم ينفذ. وفي ٢ أغسطس كرر الطبيبان معا نفس الأمر لم

يطاعا. وإن النسيان الذي تزعمه المتهمتان ليثير منتهى العجب نظرا إلى أن المواد البرازية والقيئية كانت تلفت النظر.

وأخيرا في ٦ أغسطس استطاع الطبيبان أن يحصلا بنفسيهما على بعض المواد، وأثناء عملهما دخلت الغرفة مدام تكسيبه وسألتهما مندهشة عما يفعلان ثم ألحت أن يجريا الفحص أمامها حالا. ولم يجبها الطبيبان طبعا إلى طلبها. وفي ٩ أغسطس احتفظا بكمية أخرى ونتج من الفحص أنها تحتوي على الزرنيخ

"وقد لاحظ الدكتور جان أن القيء لا يحدث في الغالب إلا ليلا بعد أن يتناول المريض بعض المرق الذي كانت تعده الخادمة فرانسواز وتقدمه هي أو مدام تكسيبه إليه، وظهرت من التحري ظروف وقرائن محددة تجمعت مستندة على هذا الدليل تبرهن على أن بيير تكسيبه مات مسموما، وأن هذه الجريمة قد ارتكبت بفعل المتهمتين اللتين كانتا وحدهما بجانب فراشه.

وهذا الدليل يمكن أن يزداد تأكد من قرينة خطيرة أمكن اقتناصها بعد وفاة المجني عليه، ففي ليلة ١١ أغسطس، بينما كان بعض الغرباء يقفلون عيني المجني عليه بعد أن أسلم الروح كانت هاتان المرأتان في المطبخ.

قالت مدام تكسيبه أنها لا مصلحة لها في وفاة أخي زوجها، وأن تركته ستكون لها من المنغصات ثم أضافت قائلة (ثم أني لا أعرف أي نوع من السم. أنا أعرف أن هناك شيئا اسمه الزرنيخ ولكني لم أره في حياتي).

"وأجابت فرانسواز بأنها لا تعرف السم أيضا وأنه من المدهش أن يفترض أن سيدها مات مسموما، وكان المسيو جوبي عمدة الناحية من المساهمين في التحقيق، ولفت هذا الكلام انتباهه لأنه يدل على أن المتهمتين أعلنتا مقدما أنهما لا تعرفان أي نوع من السم، وأنهما لم تريا الزرنيخ مطلقا وهو المادة التي تقرر أخيرا أنها استعملت في ارتكاب الجريمة.

وبينما كانت هذه المأساة تدبر بيد مدام تكسييه وخادمة المجني عليه، ظهر أن هناك شخصية أخرى هي شخصية والد مدام تكسييه المسيو فرانسوا شارلو الذي يدل سلوكه وأفعاله على اشتراكه المباشر في الجريمة بمساعدته التي قدمها للمتهمتين المذكورتين لتنفيذها

المتهم فرانسوا شارلو الذي كون ثروة من شراء وبيع الأملاك العقارية، رجل لم يستطع أن يكسب احترام الناس، فإنه في الأيام الأخيرة فقد كل اعتبار له بصلته بشركات تجارية مشبوهة ولعلاقات صداقة له برجل مجرم هو مارتن ريو الذي ارتكب أربع جرائم تسمم وقدم إلى محكمة الجنايات في العام الماضي

وفرانسوا شارلو يشارك ابنته مدام تكسييه أطماعها في ثروة المجني عليه، فإنه كان ينتظر لحفيدتيه تركة عمهما بيير تكسييه الذي كان يدينه في مبلغ ثلاثين ألف فرنكا مستحقة الدفع في الشهر المقبل.

"وفي خلال شهر أغسطس – أي في فترة الانتخابات الفرعية – لم يشترك في المعركة الانتخابية على مألوف عادته، فلما سئل في ذلك قال أنه

قلق على بيير تكسييه أخي زوج ابنته وقال (إن حالته سيئة جدا. ولا أعرف بماذا هو مريض. أنه لا يفعل إلا أن يقئ. ليست هناك وسيلة للمقاومة). لم يقم فرانسوا شارلو في لاما يراي كما فعلت ابنته. ولكن ابتداء من ٢ أغسطس وهو اليوم الذي أرسلت إليه ابنته تطلبه على أثر الأزمة العصبية التي أصيبت بها، فإنه أخذ يكرر زياراته.

"وفي ٩ أغسطس على الخصوص ذهب إلى لاما يراي في الساعة الرابعة صباحا كي يصل قبل الأطباء الذين كانوا يعودون المريض في زيارات صباحية. وسأل المريض عما إذا كان يتابع القيء وعما إذا كان يتعاطى المرق يوميا ثم أضاف: (يجب أن يتناول قليلا من المرق دائما)

(وفي ليل ٩ أغسطس وفد المحققون إلى لاما يراي. في هذه اللحظة كانت قد نبتت شبهة عن جريمة تسميم. ولكن أحدا لم يكن قد اتهم أو اشتبه فيه. وكان من الطبيعي إذن أن مدام تكسييه وأباها يضمان مجهودهما إلى مجهود المحققين والأطباء لاكتشاف الحقيقة ولكنهما لم يفعلا. وكانت خطتهما الأولى أن قالا أنه إذا كانت هناك جريمة تسميم قد ارتكبت، فيجب أن تلقى شبهتها على الأطباء.

"وقالت مدام تكسييه للدكتور جان (إنك أنت يا سيدي الذي أوصلته إلى هذه الحال، فالدواء الذي أعطيته له يوم الخميس لم يستحضر من الصيدلية، وإنما أحضرته معك في حقيبتك لقد أخطأت. ومنذ تلك اللحظة بدأ المريض يسير من سيء إلى أسوأ). ونظرا إلى مدام تكسييه وأباها أدركا

مقدما أن هذه الخطة لا ترتكز على أساس فأنهما جهزا طريقة أخرى للدفاع فأصرا على استدعاء عدد من الأطباء أمام المجني عليه، وذلك بغرض أن يهدما بواسطة الخلاف الطبي المحمول والتعارض في التشخيص كل قيمة الطبيبين اللذين توليا العلاج.

"جاء الطبيبان الدكتور جان بتفاصيل الموضوع ورأيا أن ينسحبا، وفي ١٠ أغسطس وفد طبيب آخر هو الدكتور موران. وبعد أن فحص المجني عليه أعطى رأيه بأنه كان عنده سرطان في المعدة. هذا بينما أن التشريح أثبت غير ذلك. وفي الحال طلب شارلو وابنته شهادة كتابية من الدكتور موران برأسه، فأعطاهما إياها. ثم لوحا بها في وجه الدكتور جان قائلين (هذه هي وثيقتنا)، وإلى هذا الوقت لم يكونا قد اتهما، ألا أنهما — وبيير تكسييه مازال حيا في ضميرهما – كانا يبحثان مقدما عن وسيلة لهدم الاتهام الذي لم يكن قد ولد بعد، ولكنهما كانا يحسان أن لن يفلتا. كان بيير تكسييه رجلا محسنا، ليس له عدو، وقد أسف عليه الناس جميعا. وأحدثت وفاته في شعورهم صدعا شديدا إذ تذكروا عدة جرائم من نفس النوع قد ارتكبت في نفس المقاطعة وتركت في الشعور العام أثرا لا يمحى" وتلا ذلك تكييف التهمة بالنسبة لكل واحد من المتهمين.

***

بعد تلاوة قرار الاتهام سأل الرئيس المتهمين فأجابوا جميعا مؤكدين براءتهم، ثم سمعت المحكمة والمحلفون مائة وثلاثة من الشهود بين إثبات

ونفي! وقام الأفوكاتو العمومي فترافع مرافعة قوية قاسية يلخصها قرار الاتهام الذي أثبتاه فيما تقدم إلا أنه عاد فأعلن تنازل النيابة عن اتهام الخادمة فرانسواز لعدم كفاية الأدلة بالنسبة لها. ثم عن اتهام المسيو فرانسوا شارلو. ولكنه أصر على اتهام مدام تكسييه وحمل عليها حملة شديدة وناشد المحلفين أخيرا أن يصدروا قرارهم بإدانتها.

***

وجاء دور الأستاذ شارل لاشو، وسنجتهد في أن نلخص مرافعته تلخيصا فيه بقدر الإمكان وجهة نظره في القضية، ونفصح به – بقدر الإمكان أيضا – عن مبلغ ما تتسم به مرافعات هذا المحامي العظيم من فيضان العواطف ونبل الأحاسيس:

"حضرات القضاة. حضرات المحلفين.. إن براءة المتهمين الثلاثة قد أعلنت في جميع الضمائر، وإذا كان الأفوكاتو العمومي مازال يشك، فإنه الوحيد الذي يصر على هذا الشك، ويبدو لي أن الرأي العام قد تفضل فأسدى جميع العزاء إلى أولئك التعساء الذين كانوا فريسة خطأ قضائي مؤلم.

من هم المتهمون؟.. سأحاول أن أخطط لكم صورا تقريبية عنهم.. أية امرأة هي مدام تكسييه؟

إن مدام تكسييه سيدة نبيلة، تجمعت في قلبها كل الفضائل، وبعد كل الآلام التي كابدتها، أسمح لنفسي أن أضيف إلى مزاياها صفة الشجاعة. إنها

كشابة، كانت مثالا لكل قريناتها. وكزوجة، أسعدت رجلا طيبا. وعندما فقدته دخل الترمل إلى قلبها وخيم فوقه ولم يخرج أبدا.. وكأم، كانت خير أم لطفلتيها لملاكيها، ولعلمكم تذكرون تلك العبارة التي نطق بها أمامكم قلب سيدة كريمة إذ قالت: "إن مدام تكسييه أم حتى بأخمص قدمها.. أم كاملة"، وكسيدة ذات مال، أعطت كثيرا، وعرفت كيف تعطي، فإن تبدر الذهب على الفقراء واجب شائع ولكن أن تذهب بنفسك تقرع باب الفقير وتجلس على فراشه، وتحمل إليه مع النقود، العزاء والحنان، فهذا أيها السادة هو إحسان النفس العالية، هو الإحسان الذي امتازت به مدام تكسييه.

هاكم إذن جريمة التسمم، وهاكم المرأة المفترسة التي يقدمها الأفوكاتو العمومي على أنها ارتكبت جريمة تسميم من أجل المال، وهذه الخادم فرانسواز التي أحبها وأشد على يدها من أعماق قلبي، أية بساطة، وأي صفاء طوية؟ أنها تجهل كل شيء، ولا تتصور أن العدالة قد تقع أحيانا في أخطاء دامية، لم تكن حياتها إلا البساطة والطاعة والوفاء، وكان المسيو تكسييه يعلم ذلك حق العلم، وطالما خشى أن يفقد مثل هذا الكنز.. أما الثالث مسيو شارلو، فهو الرجل القوي، الكريم النبيل، وأيضا الرجل قتلتموه أدبيا بهذا الاتهام الشنيع.

استطاع هذا الرجل بأمانته ودأبه أن يكسب ثروة طائلة، وكان مثالا عظيما لجميع أولئك الذين يعرفون كيف يشتغلون ويحتفظون في الوقت نفسه بشرفهم. ظلت نفسه بلا لوثة، وكان رجلا مبذرا. الكل يقولون عنه ذلك، ولم

تجلب له ثروته الواسعة الغيرة أو الحسد، وعرف كيف ينتزع احترام الجميع وتقديرهم

قدره شركاؤه، وقد سمعنا زوجة شريك له وهي تدلي بشهادتها، تقول أنها بعد وفاة زوجها، وصلها منه مبلغ من المال لم تكن تنتظره.. لقد بارك الله له في عمله، فكان مثالا مشجعا لأولئك الذين يجمعون مع العمل، الإخلاص والأمانة. إن كرم هذا الرجل ليضيء في هذه القائمة كما تضئ أشعة الشمس، ويشير لكم إلى أن اكتسب ثروته بكل كفاية، وبكل شرف.

إن الأفوكاتو العمومي يتكلم عن شوائب تثبت عكس ذلك، فليصرح لنا بها. إني أريد أن تظل غيمة واحدة صفاء تلك السمعة الناصعة. إنني أريد أن يخرج شارلو من هذه القاعة عن طريق بابها الكبير الذي يخرج منه الأبرياء.

لقد اكتسب هذا الرجل ثقة الجميع، واختارته المحاكم كخبير مرات عديدة، وعندما تختار العدالة مساعديها فليست تختار إلا من تقدرهم – فلا تحاولوا أن تنزلوه من ذروة شرفه التي وضعتموه بأنفسكم فيها.

هؤلاء الثلاثة على بعد قليل منهم كان يعيش رجل طيب، يليق به أن يكون عضوا في عصبتهم، لأنه كان نبيلا مثلهم، وحسنا مثلهم. وعندما صدمه موت أخيه، عاهد نفسه أن يعيش أعزب وأصبح الأب الثاني ليتيمتي أخيه، والعواطف الحية التي كان ينطوي عليها لأبي هاتين الطفلتين، ظل يضمرها لأمهما التي قدرها كما قدرها كل الذين يعرفونها. مع أن بنيته كانت صحيحة،

فإنه أصيب بداء النقرس، وفي شهر مايو سنة ١٨٦٧ اشتد عليه هذا المرض، وفي شهر يونيو احتدت الأزمة.

لم تعرف مدام تكسييه بهذا المرض إلا حوالي آخر يونيو، ونظرا إلى مشاغلها لم تتمكن من الحضور إلى لاما يراي إلا في ٢ يوليو لتمضي يوما واحدا. ثم عادت في ١٥ يوليو وأقامت بجانب المريض مع أسرتها، ومات بيير تكسييه مسموما في ١١ أغسطس.

تقول النيابة لمدام تكسييه: "لقد كانت لك منفعة من موته، لذلك فأنت القاتلة، وإني أطلب عقابك"...

أي باعث قد يكون استولى على هذه المخلوقة الطيبة التي يتمنى كل إنسان أن يكون أخا لها.. المال؟...

إنها تمتلك ثروة قدرها مليونان من الفرنكات، وكل باب لبذخها ليس سوى الإحسان وتوزيع الصدقات.

كانت ثروة المسيو تكسييه ثلاثمائة ألفا من الفرنكات، أي أقل من ربع ثروتها، وتلك الثروة كان مآلها بكل تأكيد إلى ابنتيها، ولكنك يا سيدي تقول أن الطماعين لا يكفيهم الأمل.. فأين هو برهان الطمع؟.. إذا كان المسيو تكسييه قد مات مسموما، فمن الذي قتله؟ أعليَّ أنا أن أجيب؟.. لم يكن لي الشرف بأن أكون المدعي العام.. إنك يا سيدي الأفوكاتو العمومي تشهر في وجوهنا سلاحا ذا حدين ثم تقول: "أنك أنت أو الدكتور جان، أحدكما قتل

المسيو تكسييه".. لو كنت أنا الدكتور جان، فما اتسعني بهذا التخيير، لأني في النهاية سأثبت لكم أني لم أكن القاتل.. ولكني لست الدكتور جان. وبما أني محامي الدفاع، فإني آخذ الحد الذي يعجبني أن آخذه من السلاح المشهر. إني أكرر أن السلاح ذا الحدين الذي شهره الأفوكاتو العمومي في وجهنا، هذا السلاح مرعب بالنسبة للدكتور جان.. إنه يفتح الباب للافتراضات وللبحث عن المسئول.

"هي" القاتلة، تدعو إلى المراقبة، الطبيب الواسع الشهرة –كما يعرف الجميع – في دراسة السموم، ولما تتلق من ٣ إلى ١٥ يوليو أنباء عن المريض، أنهت أعمالها، وسافرت في ١٥ يوليو إلى لاما يراي حيث أقامت هناك هي وطفلتها ومربيتها وجميع خدمها. إذن فقد كانت تكاثر من شهود جريمتهما، وقد أرادت أن تجعل من ابنتيها البريئتين متفرجتين على إجرامها.

وبين ٢ و١٥ يوليو أمر الدكتور جان بأن يعطي المريض حبوبا، ولم يكن هذا الدواء موفقا، ففي يوم ٤ يوليو سببت هذه الحبوب للمريض آلاما شديدة، وفي ٨ يوليو ظهرت مضاعفات خطيرة نتيجة للتسميم الذي تم في ٢ يوليو بغير شك..

وفي ١٤ يوليو – أي بعد ثلاثة عشر يوما من رحيل مدام تكسييه – أعلن المريض لعدة شهور أنه يحس بثقل شديد في قلبه، وبرغبته في أن يقئ باستمرار، وكان بصاقة مخاطيا إذن فمن الذي قارف التسميم من ٢ إلى ١٥ يوليو؟

إن النيابة نفسها تعترف بأنها ليست فرانسواز. ومع ذلك، ففي هذه الفترة ساءت حالة المريض بعد تعاطيه الحبوب أو أي شيء آخر..

وصلت القاتلة في ١٥ يوليو، وفي ١٦ يوليو أرسلت تستدعي الدكتور جان، ولكن الدكتور جان كان قد رحل إلى باريس سعيا وراء صليب اللجيون دونور الذي كان خياله يقض مضجعه. وعندما رجع في ٢٥ يوليو استدعته القاتلة أيضا إلى جانب المريض فوجدوه في حالة سيئة جدا. وفي هذا اليوم أعتقد أنه تسمم، ولكنه لم يثبت أمام هذا الاعتقاد ولم يلبث حتى نسي كل شيء لدى عودته إلى بارتناي..

وفي ٢٧ تجددت شبهاته، وكان قد طلب في ٢٥ يوليو بعض المواد القيئية والبرازية من متخلفات المريض. وقد طلبها همسا، وعندما علم أن أحدا لم ينفذ أمره لم يغضبه هذا، وفي ٢٧ كرر نفس الطلب لتجهز له هذه المواد في ٢٩. وفي هذا اليوم احتفظوا له بشيء منها، ولكنها كانت كمية صغيرة رآها غير كافية.

ومع ذلك فقد كانت عدة المواد البولية التي كانت تصلح وسيلة مؤكدة للتحقيق، ولأنه لم يهتم بأن شغل نفسه في ذلك.

وفي يوم ٢٩ تأكد نهائيا من وقوع التسميم على حد قوله.. حسنا.. من أجل العلم الذي يحمله الدكتور جان. ومن أجل شرفه أيضا، أعتقد أنه في هذه الفترة لم يتأكد من وقوع التسميم، وإلا فلو أنه تيقن من ذلك لأسرع يفعل شيئا ينقذ به المريض، ولكنه لم يفعل شيئا.

وفي أول أغسطس، أمر بأن يعطى المريض شربة، وهذا من حقه فالأطباء يستطيعون في كل وقت أن يأمروا للمرضى بالحقنة وبالشربة. ولما كان واثقا من مزايا المانيزيا أراد أن يستعملها، وذهب ليحضرها من عربته.. بينما كان في البيت اثنى عشر كيسا مليئة بالمانيزيا.

وأثناء اتجاهه نحو العربة، كانت الأنسة دولاسال – إحدى الشاهدات – تراقبه من الحديقة وشاهدته يتناول الحقيبة الرمادية ويخرج منها زجاجة فحصها ثم ردها، وتناول بعد ذلك الحقيبة السوداء.. وهذه بلا شك حقيبة الشر، وأخرج منها حزمة تحتوي على مسحوق أبيض.. هذا المسحوق هو الذي خلطه بالماء وجعل المريض يتناوله منه ثلاث كوبات قائلا له كانه يمزح "سوف تبقى هذه الكوبات الثلاث دائما في جوفك"..

لست أدري إذا كان الدكتور جان قد أخطأ.. لست أعرف إذا كان قد فعل ذلك عن عمد أو عن خطأ. إنني محامي الدفاع، ولكن عندما يقول لنا الأفوكاتو العمومي أن من المستحيل الخلط بين الزرنيخ وبين المانيزيا، أشهر له هذه الجريدة التي وصلتني من باريس صباح اليوم. جريدة الأفينير ناشيونال، في هذه الجريدة أن شخصا تناول الزرنيخ معتقدا خطأ أنه مانيزيا، وعانى آلاما شديدة – وهنا أذكركم بأول أغسطس – ثم مات بعد أيام لعل الله ساق هذه الفاجعة الأليمة لتكون في خدمة هذه القضية.

يقول الأفوكاتو العمومي أن هناك فرقا كبيرا بين هاتين المادتين في الوزن النوعي، ولكن هذا شيء لا يدركه إلا ميزان الصيدلي، وعندما نخطئ نأخذ بالمصادفة ولا نزن..

بعد أن تناول تكسييه المسكين هذه الشربة وقع فريسة لحالة فظيعة، فكان يتلوى من شدة الألم ويخرج عواءً كعواء الكلب، وقد سمعتم من أحد الشهود أنه كان يقول عن الطبيب "أنه قتلني بهذه الشربة" كأن حديدا محميا بالنار يحرق أحشائي. وعندما رأت ذلك مدام تكسييه.. عندما رأت الجسد يفنى، أرادت إنقاذ الروح فأسرعت تستدعي قسيس بوليو، هذا القسيس النبيل الذي سمعت – وأنا شديد الأسف – الأفوكاتو العمومي يثير ضده تلميحات جائرة.. وفي صبيحة هذا اليوم أسر الدكتور جان إلى مدام تكسييه في لهجة جريئة أن أخا زوجها لن يعيش أكثر من خمسة عشر يوما.. وفي هذا اليوم أيضا كانت مدام تكسييه ترى الآلام التي عاناها المسكين المقضي عليها بالهلاك، وكان هذا مما لا تحتمله أعصابها.

وفي ٢ أغسطس وصل الدكتور جان إلى لاما يراي ومعه الدكتور لودان.

لم يكن لي شرف التعرف بالدكتور لودان، وقد يكون أشرف رجل في العالم، ولكني أقرر أن به عيبا كبيرا، وذلك هو فقدان الذاكرة، فأمام قاضي التحقيق، في شهر أغسطس، كان قد نسي كل شيء، ولم تعد إليه ذاكرته إلا في الجلسة – في شهر مارس – وبعد أن أدلى الدكتور جان بشهادته، وكان التشابه بين أقوالهما مما يدعو إلى الدهشة، فالدكتور جان يؤكد لنا أنه لم

يكن البادئ بالحديث إلى زميله عن التسمم. في شهر أغسطس قال الدكتور لودان أن زميله أخبره بأن المريض في حالة تسمم فأبدى دهشته لهذا النبأ ولم يشاطر زميله رأيه إلا بعد أن استعاد في ذاكرته سلسلة الحوادث التي التفت إليها.

وإذن ففي اليوم التالي للحقنة التي قلبت كيان المريض، يحضر الدكتور جان معه طبيبا يخبره بتسمم مريضه.. والدكتور جان برغم أنه اكتشف التسميم في ٢٥ يوليو.. كلا.. كلا.. فإلى أول أغسطس لم يكن الدكتور جان يعتقد بحصول التسمم والدليل على ذلك تذاكره الطبية

وقد سمعتم نظرية أدهشتني، فقد تمت في هذه القاعة مواجهة بين الدكتور جان والدكتور موران وقال هذا الأخير "إن الأطباء لم يعتقدوا بوجود التسميم لأنه يوجد ترياق ضد السم هو خليط الأيدرات مع بيروكسيد الحديد".

وقد نطق الدكتور جان ردا على هذا الكلام سريعا، يخيل إلي أنه ود بعد أن قاله أن يسحبه.. قال "لا يجب ذلك لأن هذا الترياق إذا كان يشفي المريض، فإنه يخفي معالم التسميم إذا أردنا التحليل بعد ذلك"..

فرد الدكتور موران عليه قائلا: "بدلا من أن تهتم بتسليم مجرم إلى يد العدالة، كان خيرا أن تنقذ حياة رجل"

لم يقل الدكتور جان سوى أن كرر الكلمات التي قالها للدكتور شفالرو "اعتن به كما تشاء ولكن لا تقرب أحشاءه ولا تدخل فيها شيئا لأننا سنحللها فيما بعد"..

نعم أيها السادة، لقد سمعتم هذا الكلام، وستقرأه الدنيا، ولكم أود أن يتمكن الدكتور من أن يعود فيسحبه، لأنه أخيرا رجل مرضاه، ومن المستحيل عليه أن يترك مريضا يموت ليأخذ بخناق القاتل إلى ساحة العدالة، وليضفر لنفسه من أحشاء المسموم إكليلا من الغار، ويقتنص من موته مجد اكتشاف جريمة التسميم..

في ٢ أغسطس لم يكن الدكتور جان يشك في التسميم، ولكن كان واثقا، ومع ذلك فقد ترك مريضه ثلاثة أيام وثلاث ليال من غير أن يعوده، تركه بلا معونة، بين أيدي قتلته ومسمميه

يجب أن أستخدم كل شجاعتي وكل إراداتي لأعبر عن أعمق شعور الاحتقار الذي يفيض به قلبه.

كانت هناك الانتخابات التي كان الدكتور جان يرشح نفسه فيها، وقد يكون هذا عملا سياسيا، ولكنه ليس عملا إنسانيا ولا لائقا بشرف المهنة.

إذا كنت يا سيدي تريد أن تنتخب عمدة، فيجب ألا تكون طبيبا، وإذا كنت لا تريد أن تفارق ناخبيك، فأوص أحدا غيرك بأن يسهر على مرضاك. إن هذه خطيئة لا يدفع ثمنها عنك كل نياشين العالم

إذا كان ذلك الرجل قد سمم بيد غير يدك، فإنك تركته يموت، ظل المريض إذن مهجورا خلال أيام ثلاثة، ولم يعطوه ترياقا ضد السم، ولم يعد الأطباء إلا في ٦ أغسطس. عاد الدكتور جان والدكتور لودان معا يأخذان مواد من متخلفات المريض في زجاجة.. تركه الطبيبان من يوم ٢ إلى يوم ٦ أغسطس، ثم تركاه من ٦ إلى ٩ أغسطس حيث عاداه في الصبح، ثم تركاه قائلين أنهما سيعودان في المساء حاملين له دواء، وعادا في المساء فعلا، ولكنهما عادا ومعهما قاضي التحقيق والنائب العمومي..

هي هي الوقائع، وإنها لتتسلسل بشكل مؤلم. جاء المحققون إلى المريض فقالوا له "إنك مسمم" وقد سممك الأشخاص الذين تحبهم".. كلا. لست أتصور لوحة أبشع ولا أدعى إلى الأسى يمكن أن تبتكر شرا من هذه اللوحة. كانت قلوب المحققين تخفق قبل أن يقتحموا على المريض غرفته ويصارحوه بحقيقة حالته.. فتكفل الدكتور جان بذلك، ودخل غرفة المريض، وقد سمعتم يا حضرات المحلفين ماذا قال له:

– إنك تموت، وإن العلم لعاجز عن إنقاذك. كن مستعدا لتعلم أنك تموت مسموما. وكن مستعدا لتعلم أيضا أن الذين سمموك هم أولئك الذين كانوا أعز الناس عليك وأحبهم إليك

لماذا لم يتركوا هذا المسكين يموت في سلام؟ لقد كانت له زوجة أخ هي محل عطفه الوحيد وكانت له كذلك خادم عجوز قامت على العناية به

على مدى عشر سنوات. جاءوا ليقولوا له أنه الشر الذي أصابه إنما انطلق من يدي هاتين المرأتين! لم يتصور المسكين ذلك، وأبى أن يصدق فأجاب:

- لا.. لا.. لا أصدق هذا. إنكم مخطئون

إنه يضحي بجسده، ويأبى التسليم في قلبه. رفض أن يسلم في أمله الأخير، الأمل الذي نتمنى جميعا أن نحمله معنا إلى القبر.. هذا الأمل هو أن مودة وعطفا يتبعاننا إلى مرقدنا الأخير ولكن الدكتور جان قال له هذا الكلام، ثم شفعه بقوله:

- إذا كانت لك وصية تحب أن تكتبها، فهذا أوانها، فكن مستعدا

ولكن المريض أجاب:

- لا. ليس عندي ما يدعو إلى ذلك

وعنى هذا أنه لم يفكر في جريمة أسرته. ولم يشأ أن يحرمها من أن ترث تركته. ولكن الطبيب كان يفكر في كل شيء أنه يسئ علاج مرضاه، ولكنه يسرع في استدعاء المحققين، وإذا أردتم أن توصوا بوصية فإنه يجعلكم تفعلون هذه يا حضرات المحلفين هي فاجعة لاما يراي التي شقت على كل الأفئدة في فرنسا

في ٩ أغسطس علمت هذه المرأة التعيسة أن شقيق زوجها سمم وأنها متهمة بارتكاب الجريمة وفي هول ذهولها ويأسها أسرعت فارتمت أمامه راكعة

على ركبتيها في حضور قسيس بوليو، وسألته إن كان يصدق اتهامها، واستحلفته أن يثق ببراءتها، وجاءت فرانسواز بعدها وقالت لسيدها:

– أنحن الذين نرتكب شرا ضدك؟

أجاب المريض المحتضر:

– كلا.. انهضا يا ابنتاي الطيبتان لستما اللتين تقتلاني

وبعد أن واساهما، ثار غضبا على ذلك الذي جلل بيته بالعار ليستر خطأه ثم كتب هذه السطور:

"إذا كنت قد سممت، فإنه جان الذي فعل ذلك. ماذا يفعل هنا هذا المخلوق؟ لو كنت أعلم أنه سوف يرتكب هذه القاذورات لما سمحت له بالدخول إلى منزلي"

ولما انفرد وحده مع الممرضة مساعدة الدكتور جان قال لها هذه العبارة:

– إن جان أحط أنواع الخنازير

وكانت هذه آخر كلمات المحتضر، إنها الحكم الأعلى، وستظل محكمة فوق رأس الدكتور جان مدى حياته

انتقل المحامي العظيم بعد ذلك إلى أجزاء خاصة من مرافعة النيابة ومزقها تمزيقا، ثم أخذ يتكلم عن الخادمة فرانسواز وعن المسيو شارلو، ولو

أن النيابة تنازلت في مرافعتها عن اتهامهما، إلا أن المحامي كبير القلب لم يكن موكلا عنهما رأى أنهما يستحقان في مرافعته شيئا من الإنصاف عزاءً لهما عن شهور العذاب التي أمضياها تحت عار الاتهام

وتكلم أخيرا عن مدام تكسييه وطفلتيها؛ فأثار في جميع القلوب لوعة ختم بها على مرافعته بين تصفيق شديد تعالى من أكف النظارة، ثم جلس وأسقط رأسه بين كفيه طويلا. ولما رفع وجهه كانت عيناه مليئتين بالدموع، وبعد أن تداول المحلفون قرروا براءة مدام تكسييه..

الفهرس